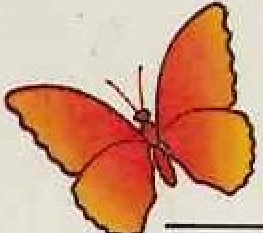
كتب الفراشة - القِصص العالميّة

شَبَحُ باسْكِرْفِيل

القِصص العالميّة ٧. شَبَح باسْكِرْفِيل

مكتبة لبنان ناشرون

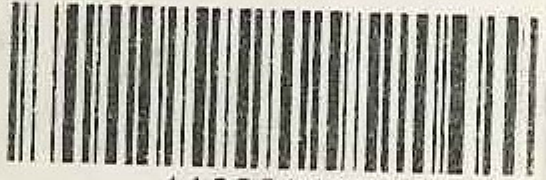


كتب الفراشة

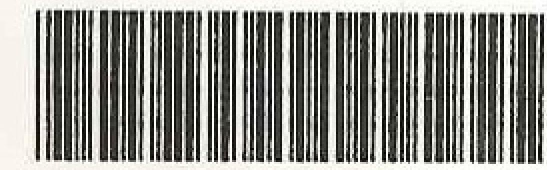
القِصص العالميّة ٧. شَبَح باسْكِرْفِيل

اِخْتارَت **مكتبة لبنان ناشرون** أَرْوَعَ القِصص العالَمِيّة ، ونقَلَتها إلى العَربيَّة مُبسَّطة ، مُراعِيَة الأَمانَة في النَّقل والمُحافَظة على جزالة الأُسْلوب العَرَبيّ وبَلاغته ، مَع تَشكيل كامِل وضَبْط دَقيق . وقد أَشْرَفَ على هٰذه السِّلسلة خُبَراء دائِرَتي النَّشْر والمَعاجم في مكتبة لبنان ناشرون حتّى نُوَفِّر للقارئ العربيّ إنْتاجًا فكريًّا مُتفوِّقًا مَظْهرًا ومَضْمونًا .





مكتبة لبنان ناشرون



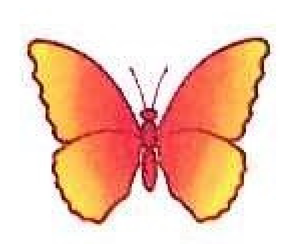
كتب الفراشة - القصص العالميّة

شَبَحُ باسْكِرفيل



تأليف : سير آرثر كونان دويل

أعدّها بالعربيّة : شوقي رياض السّنورسي



مكتبة لبنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ١١-٩٢٣٢
بيروت - لبنان
وكلاء وموزّعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٤
رقم الكتاب 01 C 196807
طُبع في لبنان



مقدّمة

مِنْ مَفاوِزِ «دارتمور» الكئيبةِ الموحِشَةِ، الّتي يَمْرَحُ عَلى ظَهْرِها أُناسٌ ذَوو طُموحاتٍ غَريبَةٍ غامِضَةٍ، مِنْ بَيْنِهِمْ أَحَدُ المُجْرِمينَ الخَطِرينَ الفارّينَ مِنْ وَجْهِ العَدالَةِ، وَمَخْلوقٌ عَلى هَيْئَةِ كَلْبٍ ضَخْمٍ مُتَوَحِّشٍ خارِقٍ لِلطَّبيعَةِ - مِنْ تِلْكَ المَفاوِزِ اتَّخَذَ «شرلوك هولمز» مَسْرَحًا لِإِنْجازٍ مِنْ أَشَدِّ الإِنْجازاتِ تَرْويعًا في سِجِلِّهِ العَمَلِيِّ الحافِلِ كَواحِدٍ مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ السِّرِّيّينَ المَشْهورينَ: وَيَتَمَثَّلُ هٰذا الإِنْجازُ في تَقَصّي الحَقائِقِ وَراءَ الوَفاةِ الشّاذَّةِ الغَريبَةِ لِأَحَدِ السّادَةِ الأَثْرِياءِ، وَوَراءَ المَوْتِ المُسَلَّطِ عَلى رِقابِ وَرَثَتِهِ الأَبْرِياءِ... مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ الموحِشَةِ القَفْراءِ بَرَزَتْ قِصَّةٌ مِنْ أَنْجَحِ القِصَصِ البوليسيَّةِ وَأَكْثَرِها خُلودًا في الأَدَبِ الإِنْجليزِيِّ.

كَتَبَ سير آرثر كونان دويل رائِعَتَهُ الخالِدَةَ: «شبح باسكرڤيل» عام ١٩٠١، مُعيدًا بِذٰلِكَ إِلى ذاكِرَةِ القُرّاءِ شَخْصِيَّةَ «شرلوك هولمز» الّذي كانَ هُوَ الباعِثَ لِذُيوعِها وَشُهْرَتِها مِنْ خِلالِ سِلْسِلَةٍ مِنَ القِصَصِ كَتَبَها قَبْلَ عَشْرِ سَنَواتٍ مِنْ ذٰلِكَ التّاريخِ. وَلِمَعْرِفَتِهِ الجَيِّدَةِ الكامِلَةِ بِتِلْكَ الشَّخْصِيَّةِ الّتي «أَبْدَعَها»، وَبِمُتَطَلَّباتِ الجَماهيرِ مِنْ قُرّائِهِ المُعْجَبينَ، اسْتَطاعَ «كونان دويل» أَنْ يُؤَلِّفَ قِصَّةً يَضْمَنُ بِها إِثارَةَ القُشَعْريرَةِ، والمُتْعَةِ أَيْضًا في نُفوسِ قُرّائِهِ، وَأَنْ يَسْتَوْلِيَ بِذٰلِكَ عَلى أَفْئِدَتِهِمْ تَمامًا - وَهٰذا كانَ غَرَضَهُ الواضِحَ والمُحَدَّدَ: أَلا وَهُوَ إِبْداعُ أَدَبٍ شَعْبِيٍّ كَأَحْسَنِ ما يَكونُ هٰذا الأَدَبُ. وَلَقَدْ نُشِرَ

هٰذا الإنْتاجُ الرّائِعُ على شَكْلِ حَلَقاتٍ في مَجَلَّةِ : «الشّاطِئ The Strand» في الفَتْرَةِ مِنْ أغُسْطُس (آب) ١٩٠١ حَتّى أبريل (نيسان) ١٩٠٢ .

وَلَيْسَ مِنْ وَظيفَةِ الأدَبِ الشَّعْبِيِّ أنْ يُثَقِّفَ أوْ يُلْهِمَ أوْ يُبَصِّرَ بِالحالاتِ الإنْسانِيَّةِ المُتَبايِنَةِ ، وَهٰكَذا يَجِبُ ألّا نَتَوَقَّعَ قِراءَةً عَميقَةً عِنْدَما نُطالِعُ «شَبَح باسكرڤيل» . عَلى أنَّ هٰذا اللَّوْنَ مِنَ الأدَبِ الَّذي تَتَعَشَّقُهُ الجَماهيرُ – إنْ صَحَّ هٰذا التَّعبيرُ – هُوَ وَسيلَةٌ يُمْكِنُ الاعْتِمادُ عَلَيْها لِلتَّأمُّلِ فيما يَسْتَغْرِقُ فيهِ المُجْتَمَعُ المُعاصِرُ مِنْ شُئونٍ ، وَفي اهْتِماماتِ الإنْسانِ المُعاصِرِ وَأهْوائِهِ وَمُيولِهِ . وَهٰذا كُلُّهُ يَنْعَكِسُ في شَخْصِيَّةِ «شرلوك هولْمز» ، الَّتي هِيَ دائِمًا يَنْبوعٌ لِافْتِتانِ القُرّاءِ ؛ فَهُوَ نَموذَجٌ لِلسَّيِّدِ المُهَذَّبِ ، والرَّجُلِ المُثَقَّفِ ، المُتَرَوّي ، الشَّديدِ الذَّكاءِ ، الَّذي يَتَمَتَّعُ بِعَقْلانِيَّةٍ شَديدَةٍ ، وَيُمَيِّزُهُ اسْتِقْلالٌ فِكْرِيٌّ ، وَشَجاعَةٌ باسِلَةٌ ، وَتَمَرُّدٌ عَلى الرَّجْعِيَّةِ والسَّلَفِيَّةِ . وَبِسَبَبِ كُلِّ هٰذِهِ الفَضائِلِ فَهُوَ مُتَغَطْرِسٌ وَمُثيرٌ لِمَنْ حَوْلَهُ أحْيانًا ، وَكانَ «شرلوك هولْمز» – مَعَ ذٰلِكَ – شَخْصِيَّةً مَحْبوبَةً لِجَمْهَرَةِ القُرّاءِ ، لِأنَّها تَمْنَحُ مُتَنَفَّسًا لِإحْباطاتِ النّاسِ في العَقْدِ الأخيرِ مِنَ القَرْنِ التّاسِعَ عَشَرَ .

وَيَسْتَطيعُ «كونان دويل» أنْ يُضاعِفَ مِنْ شَغَفِنا بِـ «شرلوك هولْمز» عَنْ طَريقِ كِتابَةِ القِصَّةِ مِنْ خِلالِ المَنْظورِ الَّذي تَرى بِهِ عَينا الدُّكْتورِ واطْسُن ، مُساعِدِ هولْمز الأمينِ ، أحْداثَها . وَلِأنَّ واطْسُن شَخْصِيَّةٌ جَذّابَةٌ ، مُتَحَمِّسَةٌ ، مُخْلِصَةٌ ، وَلٰكِنَّها مَحْدودَةُ الذَّكاءِ ، فَإنَّهُ يَتَجَشَّمُ مِنَ العَناءِ في إظْهارِ حِذْقِ هولْمز وَمَهارَتِهِ ، وَهُوَ يَحْمِلُنا عَلى أنْ نَتَّخِذَ القَرارَ النِّهائِيَّ بِأنْفُسِنا فيما يَخْتَصُّ بِشَخْصِيَّةِ هولْمز وَأفْعالِهِ – وَهٰذا يَزيدُ مِنْ جَوِّ الغُموضِ والافْتِتانِ ، فَنَحْنُ في شَكٍّ أبَدًا مِنْ خاتِمَةِ قِصَّةِ «شبح باسكرڤيل» ، وَلا نَسْتَطيعُ التَّأكُّدَ مِنْ شَيْءٍ حَتّى تَحينَ لَحَظاتُها الأخيرَةُ .



شَبَح باسْكرڤيل

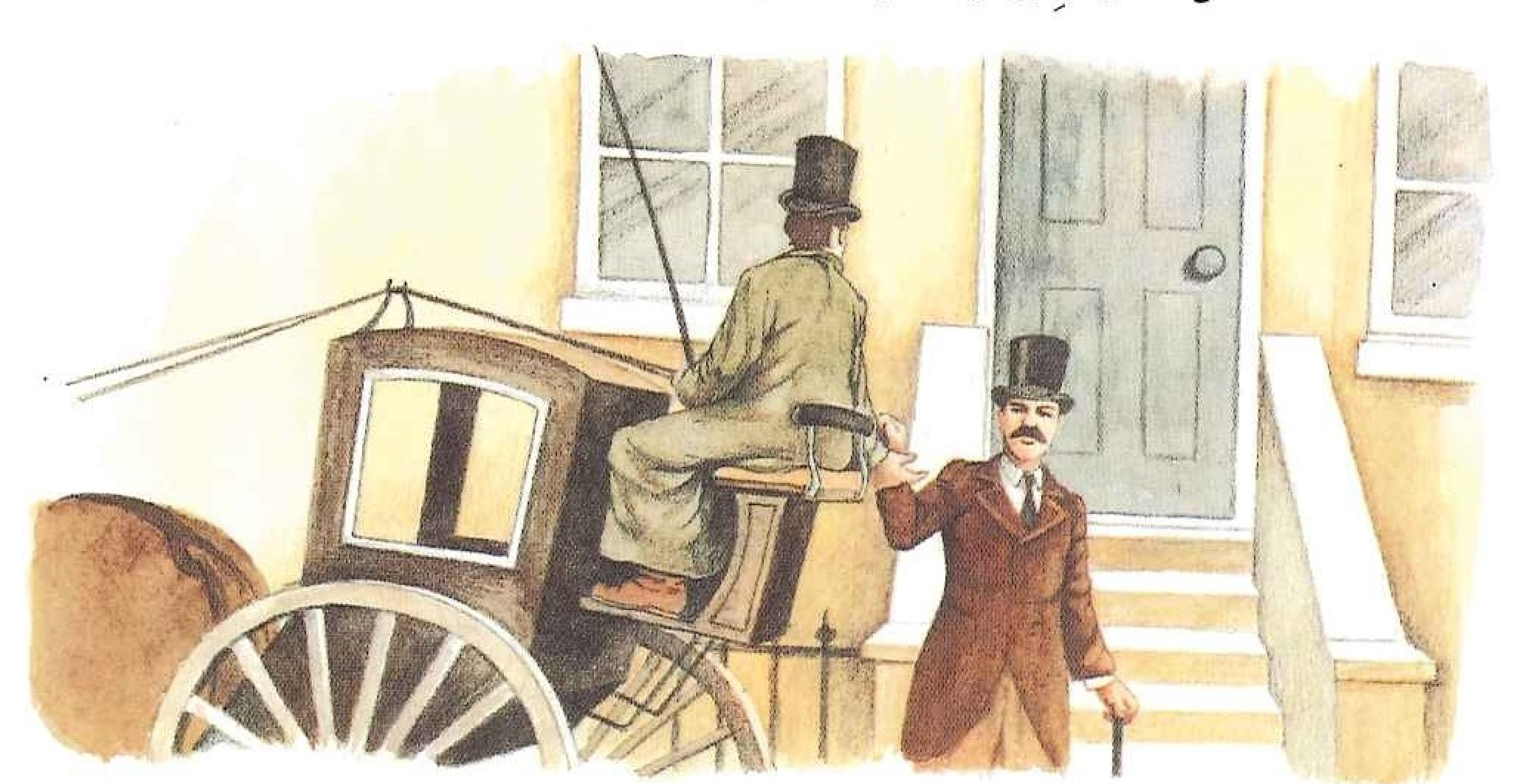
اِسْمي : الدكتور واطْسُن ، وَأنا زَميلٌ وَصَديقٌ حَميمٌ لِلْمُخْبِرِ السِّرِّيِّ الشَّهيرِ : شرْلوك هولْمز . وَقَدْ عَرَّجْتُ عَلى مَنْزِلِهِ بِشارِعِ بيكر ذاتَ صَباحٍ ، فَوَجَدْتُهُ ما زالَ جالِسًا إلى مائِدَةِ الإفْطارِ . وَعَلى كُرْسِيٍّ مُجاوِرٍ كانَتْ هُناكَ عَصا سَيْرٍ أغْفَلَها وَراءَهُ أحَدُ الزُّوّارِ أثْناءَ غَيْبَتِنا في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ . كانَتْ عَصًا جَميلَةً سَميكَةً ، ذاتَ مَقْبِضٍ كُمَّثْرِيِّ الشَّكْلِ ، وَيوجَدُ تَحْتَ المَقْبِضِ مُباشَرَةً طَوْقٌ فِضِّيٌّ حُفِرَتْ عَلَيْهِ هٰذِهِ الكَلِماتُ : «إلى جيمس مورتيمر ، MRCS ، مِنْ أصْدِقائِهِ في CCH عامَ ١٨٨٤» . كانَتْ عَصًا مَهيبَةً جَديرَةً بِأنْ يَحْمِلَها طَبيبٌ وَقورٌ مِنْ أطِبّاءِ العائِلاتِ .

بادَرَني هولْمز قائِلًا : «حَسَنًا ، يا واطْسُن ، ماذا تَسْتَنْتِجُ مِنْ هٰذا؟ بِما أنَّ زائِرَنا قَدْ غادَرَنا اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ دونَ أنْ يُفْصِحَ عَنْ قَصْدِهِ مِنَ الزِّيارَةِ ، فَإنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْنا أنْ نُعيدَ تَقْييمَ الرَّجُلِ مِنْ خِلالِ فَحْصِنا لِعَصاهُ .»

أجَبْتُهُ : «في هٰذِهِ الحالَةِ ، أسْتَطيعُ أنْ أقولَ إنَّ الدّكتور مورتيمر طَبيبٌ ناجِحٌ ، مُتَقَدِّمٌ نِسْبِيًّا في السِّنِّ ، وَمُحْتَرَمٌ مِنْ زُمَلائِهِ .»

قالَ هولْمز : «حَسَنٌ .»

«كَما أظُنُّ أنَّهُ يُمارِسُ مِهْنَتَهُ في الرّيفِ .»





تَساءَلَ قائِلًا : «لِماذا؟»

«لِأَنَّ هٰذِهِ العَصا ، مَعَ أَنَّها أَنيقَةٌ ، لٰكِنَّها مَخْدوشَةٌ مِنْ جَرّاءِ اَصْطِدامٍ عَنيفٍ بِجِسْمٍ صُلْبٍ ، حَتّى إِنَّ طَبيبًا مِنْ أَطِبّاءِ المَدينَةِ لا يُقْبِلُ عَلى حَمْلِها ؛ أَضِفْ إِلى ذٰلِكَ أَنَّ الحَلْقَةَ المَعْدِنِيَّةَ في أَسْفَلِها مُسْتَهْلَكَةٌ بالِيَةٌ .»

«هٰذا صَحيحٌ تَمامًا .»

ثُمَّ سارَعْتُ مُعَقِّبًا : «كَذٰلِكَ فَإِنَّ الحُروفَ CCH قَدْ تَرْمِزُ إِلى اَسْمِ النّادي الكائِنِ في مَوْقِعِ الطَّبيبِ الرّيفِيِّ .»

صاحَ هولْمز قائِلًا : «أَنْتَ تَتَفَوَّقُ عَلى ذاتِكَ ، يا واطْسُن ، وَلَدَيْكَ القُدْرَةُ دائِمًا عَلى حَفْزي عَلى التَّفْكيرِ . إِنَّني مَدينٌ لَكَ بِالشَّيْءِ الكَثيرِ .»

أَسْعَدَني سَماعُ هٰذِهِ الكَلِماتِ ، وَصِرْتُ فَخورًا بِنَوالِ هٰذا الاَسْتِحْسانِ مِنَ المُخْبِرِ السِّرِّيِّ العَظيمِ . وَما لَبِثَ أَنْ تَناوَلَ مِنّي العَصا وَعَكَفَ عَلى فَحْصِها بِدِقَّةٍ .

صاحَ هولْمز قائِلًا : «طَريفَةٌ هٰذِهِ العَصا وَمُثيرَةٌ لِلاَهْتِمامِ ، مَعَ أَنَّها بَسيطَةٌ تَمامًا .»

سارَعْتُ بِالتَّساؤُلِ : «هَلْ أَغْفَلْتُ أَنا أَيَّ شَيْءٍ مُهِمٍّ؟»

أَجابَني السَّيِّدُ هولْمز : «يُؤْسِفُني أَلّا تَكونَ جَميعُ اَسْتِنْتاجاتِكَ صَحيحَةً ، يا واطْسُن ، غَيْرَ أَنَّ الرَّجُلَ – بِالتَّأْكيدِ – يُمارِسُ عَمَلَهُ الطِّبِّيَّ في الرّيفِ وَيَسيرُ لِمَسافاتٍ بَعيدَةٍ . إِنَّ اَسْتِنْتاجاتِكَ – إِلى هٰذا الحَدِّ – صَحيحَةٌ ، غَيْرَ أَنَّني أُرَجِّحُ أَنْ يَكونَ الإِهْداءُ المَحْفورُ أَسْفَلَ مَقْبِضِ العَصا صادِرًا مِنْ أَحَدِ المُسْتَشْفَياتِ لا مِنْ أَحَدِ النَّوادي . إِنَّ الحُروفَ CCH تَبْدو لي في الواقِعِ رَمْزًا لِمُسْتَشْفى مُقاطَعَةِ تشيرنْغ كروسّ (Charing Cross Hospital) ، كَما أَعْتَقِدُ أَنَّ هٰذِهِ العَصا قُدِّمَتْ لَهُ كَهَدِيَّةٍ عِنْدَما تَرَكَ المُسْتَشْفى . لا بُدَّ أَنَّهُ كانَ جَرّاحًا أَوْ طَبيبًا مُقيمًا – أَيْ لا يَزيدُ كَثيرًا عَنْ طالِبِ طِبٍّ – عِنْدَما تَرَكَ المُسْتَشْفى عامَ ١٨٨٤ ، أَيْ مُنْذُ خَمْسِ سَنَواتٍ . وَهٰكَذا يا صَديقي ، يُمْكِنُ أَنْ تَخْتَفِيَ مِنْ أَمامِنا الآنَ صورَةُ الطَّبيبِ المُتَقَدِّمِ في السِّنِّ ، لِتَحُلَّ مَحَلَّها صورَةُ الشّابِّ اللَّطيفِ ، الشّارِدِ ، القَليلِ الطُّموحِ ، الَّذي لا يَكادُ يَبْلُغُ الثَّلاثينَ مِنَ العُمْرِ ، وَالَّذي يَمْتَلِكُ كَلْبًا أَضْخَمَ مِنَ التّرير (كَلْبٌ صَغيرٌ مِنْ كِلابِ الصَّيْدِ) وَأَصْغَرَ مِنَ الدّرْواسِ (كَلْبٌ ضَخْمٌ مِنْ كِلابِ الحِراسَةِ) .»

عِنْدَئِذٍ كَسَتْ وَجْهي اَبْتِسامَةٌ تُفْصِحُ عَنِ المُوافَقَةِ وَالاَسْتِحْسانِ . وَلٰكِنْ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ نَظَرِيَّةِ هولْمز تَناوَلْتُ دَليلَ الأَطِبّاءِ مِنْ عَلى الرَّفِّ الَّذي خَلْفَ كُرْسِيِّهِ ، وَبَحَثْتُ عَنِ اَسْمِ : جيمس مورتيمر... كانَ ، عامَ ١٨٨٢ ، عُضْوًا في الكُلِّيَّةِ المَلَكِيَّةِ لِلجَرّاحينَ (MRCS: Member of the Royal College of Surgeons) ، وَقَدْ عَمِلَ جَرّاحًا مُقيمًا بِمُسْتَشْفى مُقاطَعَةِ تشيرنْغ كروس مِنْ عامِ ١٨٨٢ حَتّى عامِ ١٨٨٤ . وَهُوَ يَعْمَلُ الآنَ بِبَلْدَةِ «جرمبن» بِإِقْليمِ «ديفون» . وَنَقَلْتُ هٰذِهِ المَعْلوماتِ في الحالِ إِلى صَديقي هولْمز.

قالَ هولْمز : «كُنْتُ عَلى صَوابٍ في تَخْميناتي إِذَنْ ، وَبِالإِضافَةِ إِلى ذٰلِكَ ، فَإِنَّ الطَّبيبَ الشّابَّ لا بُدَّ أَنَّهُ شَخْصِيَّةٌ مَحْبوبَةٌ ، بِدَليلِ أَنَّهُ تَلَقّى هَدِيَّةً مِنْ زُمَلائِهِ في المُسْتَشْفى ، كَما أَنَّهُ قَليلُ الطُّموحِ ، لِأَنَّهُ آثَرَ أَنْ يَتْرُكَ مَدينَةَ لندن إِلى الرّيفِ – وَفي

نَفْسِ الوَقْتِ لا بُدَّ أَنَّهُ كَثيرُ الشُّرودِ ، لِأَنَّهُ نَسِيَ الْتِقاطَ عَصاهُ حينَ غادَرَ الغُرْفَةَ . »

سارَعْتُ أَسْأَلُهُ : «والكَلْبُ ؟»

أَجابَني : «اَلكَلْبُ مُعْتادٌ عَلى حَمْلِ العَصا ، لِأَنَّ آثارَ أَسْنانِهِ مَحْفورَةٌ عَلَيْها . إِنَّهُ كَلْبٌ صَغيرٌ مُتَمَوِّجُ الشَّعْرِ مِنْ كِلابِ «السِّبَنْيل» ، فَفَكُّهُ أَعْرَضُ مِنْ فَكِّ كَلْبِ «التِّرير» ، وَأَضْيَقُ مِنْ فَكِّ كَلْبِ «الدِّرْواس» .

«كَيْفَ تَطوفُ مِثْلُ هٰذِهِ الحَقائِقِ بِذِهْنِكَ ، يا عَزيزي هولْمز؟»

«لِأَنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَرى مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ ذٰلِكَ الكَلْبَ «السّبنيل» واقِفًا عَلى عَتَبَةِ مَنْزِلي ، وَصاحِبُهُ يوشِكُ أَنْ يَدُقَّ جَرَسَ البابِ . »

بَعْدَ دَقيقَةٍ واحِدَةٍ ، أُعْلِنَ عَنْ قُدومِ الدّكتور مورْتيمر . كانَ ذا جِسْمٍ نَحيلٍ بالِغِ الطّولِ ، وَعَيْنَيْنِ رَمادِيَّتَيْنِ تَبْرُقانِ خَلْفَ زُجاجَتَيْ نَظّارَةٍ مُذَهَّبَةِ الحافاتِ . وَاسْتَرْعَتْ نَظَرَهُ العَصا عِنْدَ دُخولِهِ الغُرْفَةَ ، فَصاحَ : «آهِ ! إِنَّني سَعيدٌ بِعُثوري عَلى عَصايَ ، فَهِيَ هَدِيَّةٌ قُدِّمَتْ إِلَيَّ في مُناسَبَةٍ عَزيزَةٍ . »

نَظَرَ إِلَيْهِ هولْمز مُتَسائِلًا : «أَهِيَ مِنْ مُسْتَشْفى تشيرِنْغ كروس؟»

أَجابَ الرَّجُلُ : «أَجَلْ مِنْ أَصْدِقائي هُناكَ في مُناسَبَةِ زَواجي . »

«هٰذا شَيْءٌ رائِعٌ . » وَعَقَّبَ هولْمز وَهُوَ يُشيرُ إِلَيْهِ بِالجُلوسِ : «عَلى فِكْرَةٍ ، هٰذا صَديقي الحَميمُ : الدّكتور واطْسُن . » . وَما إِنْ جَلَسَ زائِرُنا في مَقْعَدِهِ ، حَتّى تَطَرَّقَ مُباشَرَةً إِلى هَدَفِهِ مِنَ الزِّيارَةِ .

بَدَأَ الطَّبيبُ حَديثَهُ قائِلًا : «حَسَنًا ، يا سَيِّدُ هولْمز ، أَجِدُ نَفْسي مُواجِهًا بِمُشْكِلَةٍ غَيْرِ عادِيَّةٍ ، وَأُريدُ أَنْ أَهْتَدِيَ فيها بِنَصيحَتِكَ . » ثُمَّ تَناوَلَ مَخْطوطًا مِنْ جَيْبِ سُتْرَتِهِ ، وَاسْتَأْنَفَ كَلامَهُ : «هٰذا مَخْطوطٌ قَديمٌ ، وَلٰكِنَّهُ ذو صِلَةٍ خاصَّةٍ بِمَوْضوعِ قِصَّتي . »

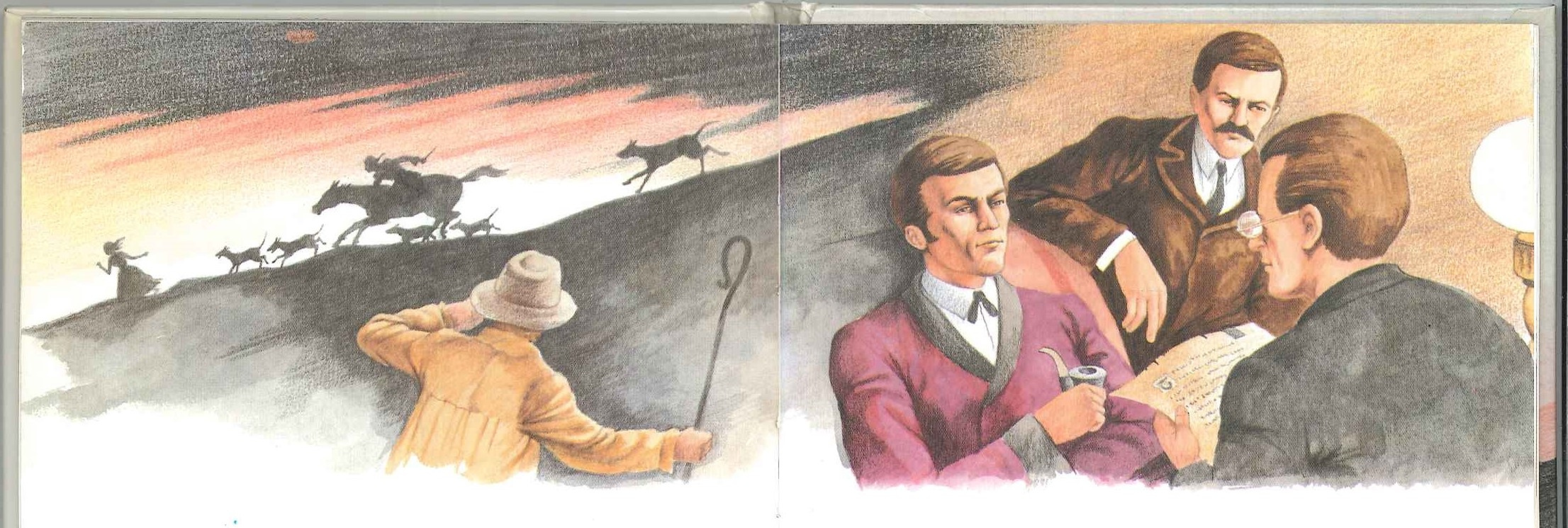
قالَ هولْمز ، بَعْدَ أَنْ أَلْقى نَظْرَةً قَصيرَةً عَلى المَخْطوطِ : «ما لَمْ يَكُنْ هٰذا مُزَيَّفًا ، فَإِنَّهُ يَعودُ إِلى أَوائِلِ القَرْنِ الثّامِنَ عَشَرَ ... رُبَّما إِلى حَوالى عامِ ١٧٣٠ . »

سَأَلَ الدّكتور مورْتيمر ، وَقَدْ عَلاهُ ارْتِباكٌ واضِحٌ : «وَلٰكِنْ كَيْفَ عَرَفْتَ ذٰلِكَ ؟»

أَجابَ هولْمز : «توجَدُ في حُروفِ الكِتابِ دَلالاتٌ مُعَيَّنَةٌ تُشيرُ إِلى انْتِمائِهِ لِذٰلِكَ التّاريخِ . »

أَمَّنَ الطَّبيبُ عَلى مُلاحَظَتِهِ قائِلًا : «إِنَّكَ لَعَلى صَوابٍ تَمامًا ، فَإِنَّ التّاريخَ المَضْبوطَ هُوَ عامُ ١٧٤٢ . لَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِهٰذِهِ الوَثيقَةِ سير تشارْلز باسْكَرْفيل ، الَّذي ماتَ فَجْأَةً مُنْذُ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ . كُنْتُ أَعْرِفُهُ جَيِّدًا ، فَقَدْ كُنْتُ طَبيبَهُ الخاصَّ ، وَصَديقًا لَهُ في الوَقْتِ نَفْسِهِ .. كانَ رَجُلًا عَمَلِيًّا وَصارِمًا ، وَلَمْ يَكُنْ بِحالٍ خَيالِيًّا أَوْ مُؤْمِنًا بِالخُرافاتِ ، وَلَقَدْ أَخَذَ هٰذِهِ





الوَثيقَةَ الَّتي بَيْنَ يَدَيَّ مَأْخَذَ الجِدِّ التّامِّ. أَوَدُّ الآنَ أَنْ أُخْبِرَكَ - لَوْ سَمَحْتَ - بِلُبِّ هٰذا المَخْطوطِ.»

«تَفَضَّلْ، فَأَنا وَالدّكتور واطْسُن نَتوقُ إِلى سَماعِ قِصَّتِكَ.»

تَنَحْنَحَ الدّكتور مورْتيمر، ثُمَّ بَدَأَ حَديثَهُ قائِلًا:

«يَحْمِلُ المَخْطوطُ في أَعْلاهُ هٰذِهِ الكَلِماتِ: قَصْرُ باسْكَرْڤيل، عام ١٧٤٢. وَيَحْكي أُسْطورَةً عَنْ «شَبَحِ آلِ باسْكَرْڤيل». وَلَقَدْ تُنوقِلَتْ هٰذِهِ القِصَّةُ أَبًا عَنْ جَدٍّ حَتّى آلَتْ إِلى الكاتِبِ، وَهِيَ تُسَجِّلُ حادِثَةً في حَياةِ «هوغو باسْكَرْڤيل»، الَّذي كانَ مَشْهورًا بِأَفْعالِهِ الوَحْشِيَّةِ الشِّرّيرَةِ في جَميعِ أَرْجاءِ الإِقْليمِ الغَرْبِيِّ.

«لَقَدْ وَقَعَ الرَّجُلُ في حُبِّ جارَتِهِ ٱبْنَةِ فَلّاحٍ مِنْ ناحِيَتِهِ، وَلٰكِنَّ الخَوْفَ تَمَلَّكَ الفَتاةَ، فَبَدَأَتْ تَتَجاهَلُ مُلاطَفاتِهِ. وَعِنْدَما عَلِمَ هوغو، ذاتَ يَوْمٍ، بِغِيابِ أَبيها وَإِخْوَتِها عَنِ المَنْزِلِ، تَسَلَّلَ إِلى المَزْرَعَةِ مَعَ خَمْسَةٍ أَوْ سِتَّةٍ مِنَ الرِّفاقِ الطّائِشينَ، وَاخْتَطَفوا الفَتاةَ عَنْوَةً. وَحُبِسَتِ الشّابَّةُ الصَّغيرَةُ في غُرْفَةٍ عُلْوِيَّةٍ مِنْ غُرَفِ القَصْرِ، بَيْنَما أَمْضى هوغو

وَرِفاقُهُ أُمْسِيّاتِهِمْ في اللَّهْوِ وَالشَّرابِ. وَتَرامى غِناؤُهُمُ الأَجَشُّ وَصَرَخاتُهُمُ الماجِنَةُ إِلى سَمْعِ الفَتاةِ، فَأَصابَها ذُعْرٌ شَديدٌ، وَحاوَلَتِ الهُروبَ عَبْرَ النّافِذَةِ، وَنَجَحَتْ في الهُبوطِ عَلى أَغْصانِ اللَّبْلابِ الَّتي تُغَطّي حائِطَ القَصْرِ، إِلى أَنْ لامَسَتْ قَدَماها الأَرْضَ. وَبَدَأَتِ السَّيْرَ فَوْقَ أَرْضِ المُسْتَنْقَعاتِ السَّبِخَةِ اللَّيِّنَةِ، وَكانَ عَلَيْها أَنْ تَقْطَعَ تِسْعَةَ أَمْيالٍ لِلْوُصولِ إِلى مَنْزِلِها.

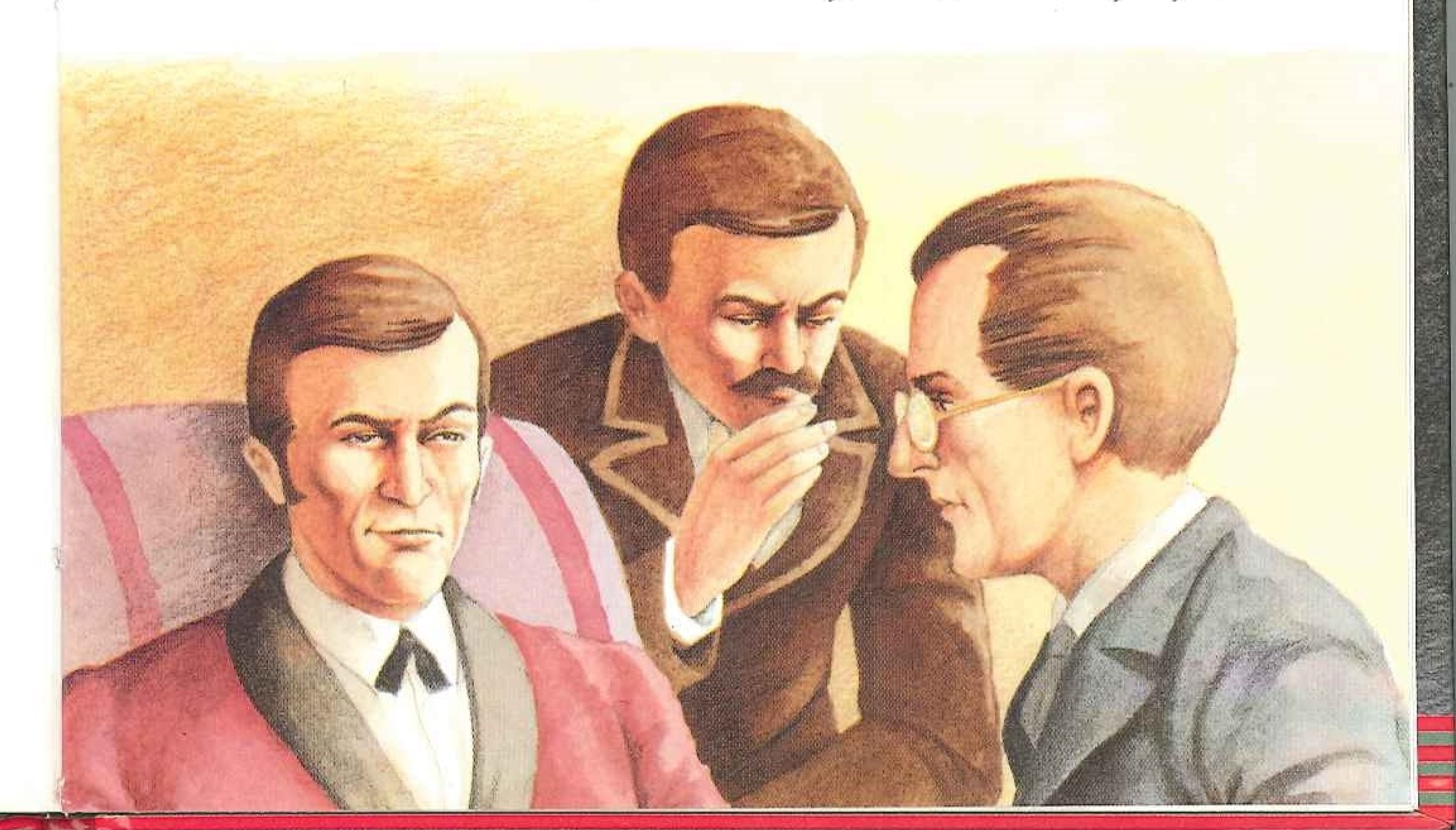
«وَبَعْدَ مُرورِ وَقْتٍ ما، ٱكْتَشَفَ هوغو أَنَّ سَجينَتَهُ قَدْ فَرَّتْ، فَٱجْتاحَتْهُ نَوْبَةٌ مِنَ الغَضَبِ الشَّديدِ، وَهَبَطَ الدَّرَجَ بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ وَهُوَ يُرْغي وَيُزْبِدُ، مُتَوَعِّدًا بِأَنَّهُ سَوْفَ يَهَبُ نَفْسَهُ روحًا وَجَسَدًا لِلشَّيْطانِ في سَبيلِ أَنْ يَلْحَقَ بِالفَتاةِ وَيُعيدَها إِلى قَصْرِهِ في الحالِ. وَنادى الرَّجُلُ السّائِسَ فَأَسْرَجَ فَرَسَهُ لِلتَّوِّ، وَأَطْلَقَ خَدَمُهُ كِلابَ المُطارَدَةِ مِنْ مَرابِضِها، وَطَرَحوا أَمامَها مِنْديلًا سَقَطَ مِنْ يَدِ المَرْأَةِ، فَٱنْطَلَقَتْ وَراءَ رائِحَةِ المِنْديلِ عَبْرَ المُسْتَنْقَعاتِ.

«وَما إِنِ ٱسْتَبانَ لِأَصْدِقاءِ الرَّجُلِ خُطورَةُ ما يَجْري، حَتّى ٱمْتَطَوْا ظُهورَ جِيادِهِمْ

وَجَدُوا في السَّيْرِ خَلْفَهُ . وَبَعْدَ بُرْهَةٍ قَصيرَةٍ اَلْتَقَوْا بِأَحَدِ رُعاةِ الأَغْنامِ ، وَكانَ الرَّجُلُ يَعْرُوهُ خَبالٌ مِنَ الذُّعْرِ . وَقالَ إِنَّهُ أَبْصَرَ الفَتاةَ تَعْدو أَمامَ الكِلابِ ، كَما رَأى هوغو باسكرڤيل عَلى ظَهْرِ فَرَسِهِ السَّوْداءِ ، مَتْبوعًا بِكَلْبٍ ضَخْمٍ ، صامِتٍ ، مُرَوِّعِ الهَيْئَةِ .

«مَرَّ وَقْتٌ قَصيرٌ ، فوجِئَ رِفاقُ هوغو بَعْدَهُ بِالفَرَسِ السَّوْداءِ تَعْدو نَحْوَهُمْ ، وَقَدْ خَلَتْ مِنَ الرّاكِبِ وَاللِّجامِ . وَلَمّا هَزَّهُمْ هٰذا المَنْظَرُ ، ساروا بِبُطْءٍ فَوْقَ جِيادِهِمْ إِلى أَنْ هَبَطوا أَحَدَ الوُدْيانِ . وَما إِنْ تَوَغَّلوا قَليلًا في ذٰلِكَ الوادي ، حَتّى رَأَوْا في ضَوْءِ القَمَرِ جُثَّةَ الفَتاةِ وَقَدْ قَضَتْ مِنَ الرُّعْبِ وَالإِعْياءِ ، كَما رَأَوْا عَلى بُعْدِ أَمْتارٍ قَليلَةٍ مِنْها جُثَّةَ هوغو باسكَرْڤيل . بَيْدَ أَنَّ الشَّيْءَ الَّذي أَعادَ أُولٰئِكَ السُّكارى المُعَرْبِدينَ إِلى صَوابِهِمْ ، مُفْزِعًا إِيّاهُمْ أَشَدَّ الفَزَعِ ، كانَ مَرْأى وَحْشٍ ضَخْمٍ أَسْوَدَ عَلى هَيْئَةِ كَلْبٍ يَرْبِضُ فَوْقَ جُثَّةِ هوغو وَيُمَزِّقُ رَقَبَتَهُ تَمْزيقًا . وَعِنْدَما اَسْتَدارَ الكَلْبُ نَحْوَهُمْ ، صَرَخوا صَرَخاتِ الرُّعْبِ ، وَعادوا بِسُرْعَةٍ جُنونِيَّةٍ عَبْرَ المُسْتَنْقَعاتِ .

«كانَ كاتِبُ المَخْطوطِ يُدْعى «هوغو باسكَرْڤيل» أَيْضًا . وَلَقَدْ كَتَبَ تِلْكَ الوَثيقَةَ لِيُحَذِّرَ أَبْناءَهُ رودجر وَجون مِنْ مَغَبَّةِ الحَياةِ الفاسِقَةِ ، ناصِحًا إِيّاهُما – بِوَجْهٍ خاصٍّ – أَلّا يُغامِرا بِالسَّيْرِ ، بَعْدَ غُروبِ الشَّمْسِ ، عَبْرَ المُسْتَنْقَعاتِ .»



وَبِهٰذِهِ الكَلِماتِ وَضَعَ الدّكتور مورتيمَر المَخْطوطَ ، ثُمَّ اَسْتَدارَ إِلى هولْمز قائِلًا : «هَلْ تَجِدُ هٰذِهِ القِصَّةَ شائِقَةً يا سَيِّدُ هولْمز؟»

أَجابَ هولْمز بِاقْتِضابٍ : «أَجَلْ ، عَلى اَعْتِبارِ أَنَّها حِكايَةٌ خَيالِيَّةٌ .»

اِسْتَأْنَفَ الطَّبيبُ حَديثَهُ قائِلًا : «حَسَنًا ، يا سَيِّدُ هولْمز . وَالآنَ لِنَتَكَلَّمْ في شَيْءٍ أَحْدَثَ عَهْدًا مِنْ ذٰلِكَ .»

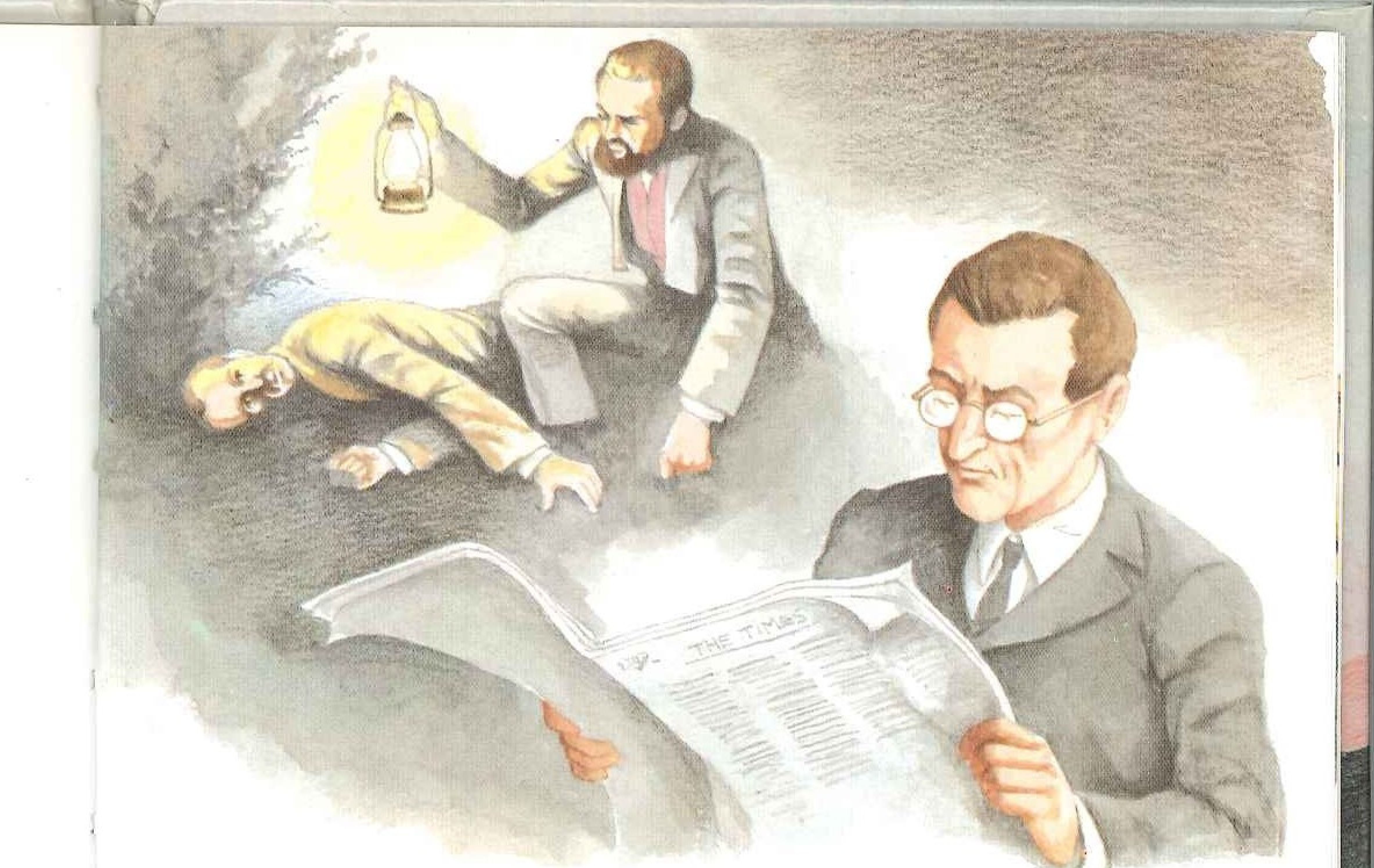
وَأَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ جَريدَةً مَطْوِيَّةً ، وَكانَتْ نُسْخَةً مِنْ صَحيفَةِ مُقاطَعَةِ ديڤون ، واسْمُها «ديڤون كونْتي كرونيكل» ، الصّادِرَةِ بِتاريخِ ١٤ يونيه (حزيران) ١٨٩٢ ، وَكانَتْ تَحْمِلُ وَصْفًا لِوَفاةِ سير تشارلز باسكَرْڤيل الغَريبَةِ ، الَّتي وَقَعَتْ قَبْلَ بِضْعَةِ أَيّامٍ .

وَقالَ الدّكتور مورتيمَر : «اِسْمَحْ لي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الأَجْزاءَ المُهِمَّةَ مِنَ القِصَّةِ الَّتي نَشَرَتْها الجَريدَةُ :

«كانَ سير تشارلز باسكَرْڤيل قَدْ جَمَعَ ثَرْوَةً طائِلَةً مِنَ التِّجارَةِ ، وَعادَ مِنْ جَنوبِ إِفريقيا مُنْذُ عامَيْنِ لِيَسْتَقِرَّ في بَيْتِ أَجْدادِهِ ، أَيْ في قَصْرِ باسكَرْڤيل . كانَ أَرْمَلًا بِلا أَطْفالٍ ، وَكانَ يَعيشُ مَعَهُ في داخِلِ القَصْرِ السَّيِّدُ باريمور كَبيرُ الخَدَمِ وَزَوْجَتُهُ مُدَبِّرَةُ المَنْزِلِ .

«وَبَعْدَ أَنْ أَنْفَقَ سير تشارلز مَبالِغَ كَبيرَةً عَلى تَجْديدِ قَصْرِهِ وَإِعادَتِهِ إِلى رَوْنَقِهِ القَديمِ ، حَوَّلَ اَهْتِمامَهُ إِلى المَناطِقِ وَالمُجْتَمَعاتِ المُجاوِرَةِ ، فَقَدَّمَ الهِباتِ السَّخِيَّةَ لِلْمُؤَسَّساتِ الخَيْرِيَّةِ المَحَلِّيَّةِ في مُقاطَعَتِهِ . غَيْرَ أَنَّ صِحَّتَهُ أَصْبَحَتْ ، مُنْذُ فَتْرَةٍ ، مَدْعاةً لِانْشِغالِ أَصْدِقائِهِ وَقَلَقِ طَبيبِهِ الدّكتور مورتيمَر ، الَّذي عَرَفَ أَنَّهُ مَريضٌ بِالقَلْبِ .

«وَكانَ سير تشارلز مُعْتادًا عَلى أَنْ يَتَنَزَّهَ في طَريقِ «يو» الشَّهيرِ بِحَديقَةِ القَصْرِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُدَ لِلنَّوْمِ . وَفي مَساءِ اليَوْمِ الرّابِعِ مِنْ يونيه (حزيران) أَعْلَنَ عَنِ اَعْتِزامِهِ السَّفَرَ إِلى لندن في صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي . وَفي نَفْسِ المَساءِ ، قامَ بِنُزْهَتِهِ اللَّيْلِيَّةِ المُعْتادَةِ ، بَيْدَ أَنَّ السّاعَةَ بَلَغَتِ الثّانِيَةَ عَشْرَةَ دونَ أَنْ يَعودَ ، مِمّا دَفَعَ بِخادِمِهِ «باريمور» أَنْ يَتَناوَلَ مِصْباحًا



وَيخْرُجَ بَحْثًا عَنْ سَيِّدِهِ. وَفي مُنْتَصَفِ طَريق «يو» توجَدُ بَوّابَةٌ تُؤَدّي إلى أَرْضِ المُسْتَنْقَعاتِ.

«وَمِنَ المُرَجَّحِ أَنَّ سير تشارلز قَدْ تَوَقَّفَ بُرْهَةً في ذٰلِكَ المَوْضِعِ لِيُدَخِّنَ سيجارًا، مَعَ أَنَّ جُثَّتَهُ وُجِدَتْ في الطَّرَفِ الأَقْصى مِنَ الطَّريقِ. وَلَمْ تَبْدُ عَلى الجَسَدِ أَيَّةُ آثارٍ لِلْعُنْفِ أَوِ المُقاوَمَةِ، وَلٰكِنَّ وَجْهَهُ بَدا مُتَبَدِّلَ المَلامِحِ مِنَ الرُّعْبِ... كانَ واضِحًا أَنَّ الوَفاةَ حَدَثَتْ إِثْرَ هُبوطٍ في القَلْبِ.

«عَلى أَنَّ حَقيقَتَيْنِ غَريبَتَيْنِ بَرَزَتا إِثْرَ الحادِثِ: فَقَدْ قَرَّرَ «باريمور» في شَهادَتِهِ أَنَّ آثارَ قَدَمَيْ سَيِّدِهِ قَدْ تَغَيَّرَتْ بَعْدَ أَنْ تَخَطّى البَوّابَةَ الَّتي تُؤَدّي إلى المُسْتَنْقَعاتِ: بَدا عِنْدَئِذٍ كَما لَوْ كانَ يَسيرُ عَلى أَصابِعِ قَدَمَيْهِ فَقَطْ. وَبِالإِضافَةِ إلى ذٰلِكَ، فَقَدْ قَرَّرَ أَيْضًا أَحَدُ الغَجَرِ وَٱسْمُهُ «مِرفي» أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ الصَّرَخاتِ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُؤَكِّدَ مِنْ أَيِّ ٱتِّجاهٍ أَتَتْ.

«وَيُعْتَقَدُ أَنَّ سير هنري باسكرْفيل، ٱبْنَ ٱلأَخِ الأَصْغَرِ لِسير تشارلز، وَأَقْرَبَ الأَقارِبِ إِلَيْهِ، مُقيمٌ في أمريكا.»

وَطوى الدكتور مورتيمر الجَريدَةَ، وَتَطَلَّعَ إِلَيْنا في تَساؤُلٍ وَٱسْتِغْرابٍ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَضافَ قائِلًا: «هٰذِهِ، يا سَيِّدُ هولمز، هِيَ الحَقائِقُ العامَّةُ المُتَعَلِّقَةُ بِوَفاةِ سير تشارلز باسكرْفيل.»

رَدَّ هولمز بِقَوْلِهِ: «آهِ! إِنَّها حالَةٌ بالِغَةُ الغَرابَةِ. وَلٰكِنَّكَ سَرَدْتَ لي حَقائِقَها العامَّةَ فَحَسْبُ، وَالآنَ دَعْني أَطَّلِعْ عَلى التَّفاصيلِ الخاصَّةِ.»

عِنْدَئِذٍ أَخَذَ الدكتور مورتيمر يَسْرُدُ بَعْضَ الخَلْفِيّاتِ المُتَّصِلَةِ بِالمَوْضوعِ: فَذَكَرَ أَنَّ سُكّانَ أَرْضِ المُسْتَنْقَعاتِ - بِسَبَبِ تَناثُرِهِمْ وَضَآلَةِ عَدَدِهِمْ في المِنْطَقَةِ - سَرْعانَ ما يَتَجَمَّعونَ وَيَأْتَلِفونَ في شَتّى المُناسَباتِ، وَأَنَّ الرَّجُلَيْنِ المُثَقَّفَيْنِ الوَحيدَيْنِ في تِلْكَ النّاحِيَةِ هُما: السَّيِّدُ ستيبلتون، عالِمُ التّاريخِ الطَّبيعِيِّ، الَّذي يَقْطُنُ بَيْتَ «ميريبِت» وَهُوَ حُجَّةٌ في حَشَراتِ العُثَّةِ وَالفَراشاتِ، وَالسَّيِّدُ فرانكلاند، الَّذي يَسْكُنُ في «قَصْرِ لافتر»، وَهُوَ كَهْلٌ غَريبُ الأَطْوارِ، وَمُدافِعٌ مُتَحَمِّسٌ عَنِ الحُقوقِ الاجْتِماعِيَّةِ لِعُمّالِ المَزارِعِ، وَهاوٍ لِعِلْمِ الفَلَكِ.

وَأَضافَ الدكتور مورتيمر أَنَّهُ كَثيرًا ما زارَ سير تشارلز بِصِفَتِهِ صَديقَهُ وَطَبيبَهُ الخاصَّ، وَأَنَّهُ كانَ مُهْتَمًّا بِحالَتِهِ الصِّحِّيَّةِ، لِأَنَّهُ بَدا وَكَأَنَّهُ يُعاني مِنْ ضَغْطٍ عَصَبِيٍّ شَديدٍ - وَهُوَ أَمْرٌ يَدْعو إلى القَلَقِ وَالانْشِغالِ بِالنِّسْبَةِ لِمَريضٍ يَشْكو مِنْ مَرَضِ القَلْبِ. كَما قالَ إِنَّ أُسْطورَةَ الكَلْبِ القَديمَةَ هِيَ الَّتي كانَتْ تُثْقِلُ عَلى أَعْصابِ سير تشارلز، فَلَقَدْ بَدا واضِحًا أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِأَنَّ قَدَرًا مُرْعِبًا يُخَيِّمُ عَلى رُؤوسِ أَفْرادِ عائِلَتِهِ، وَكانَ يَأْخُذُ تِلْكَ الأُسْطورَةَ مَأْخَذَ الجِدِّ حَتّى إِنَّهُ كانَ لا يَجْرُؤُ عَلى تَخَطّي حَديقَةِ قَصْرِهِ لَيْلًا.

قاطَعَهُ هولمز قائِلًا: «لٰكِنْ قُلْ لي: هَلْ سَمِعْتَ أَوْ رَأَيْتَ هٰذا الكَلْبَ الأُسْطورِيَّ وَلَوْ مَرَّةً واحِدَةً، أَنْتَ أَوْ أَيُّ شَخْصٍ آخَرَ مَوْثوقٍ بِهِ؟»

نَظَرَ الدكتور مورتيمر بِثَباتٍ إلى هولمز، ثُمَّ قالَ: «أَجَلْ، يا سَيِّدُ هولمز. لَقَدْ

سَمِعْتُ، أَنا وَسير تشارْلز، نُباحَ كَلْبٍ في مُناسَباتٍ عِدَّةٍ، كَما أَنَّنا لَمَحْناهُ بِالفِعْلِ، ذاتَ لَيْلَةٍ، عِنْدَ نِهايَةِ الطَّريقِ.»

أَرْدَفَ الدّكتور مورْتيمَر أَنَّهُ نَصَحَ سير تشارْلز عَقِبَ تِلْكَ التَّجارِبِ المُزْعِجَةِ، بِأَنْ يُمْضِيَ شَهْرًا أَوْ شَهْرَيْنِ بَعيدًا عَنِ القَصْرِ، خَشْيَةَ أَنْ يُصابَ بِانْهِيارٍ عَصَبِيٍّ شامِلٍ. وَأَجابَ الطَّبيبُ عَنْ أَسْئِلَةِ هولْمز الأُخْرى، حَيْثُ وَصَفَ كَيْفِيَّةَ اكْتِشافِ الجُثَّةِ، مُؤَكِّدًا مَرَّةً أُخْرى أَنَّهُ عَلى حينَ كانَتْ آثارُ قَدَمَيْ سير تشارْلز وَأَصابِعُهُما تَظْهَرُ بِوُضوحٍ عَلى الأَرْضِ قَبْلَ عُبورِهِ البَوّابَةَ، فَإِنَّ آثارَ أَصابِعِ القَدَمَيْنِ فَقَطْ هِيَ الَّتي ظَهَرَتْ بَعْدَ عُبورِهِ إِيّاها. وَمَضى قائِلًا إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ بَصَماتٍ أُخْرى قُرْبَ الجُثَّةِ، وَإِنْ كانَ قَدْ وَقَعَ مُصادَفَةً عَلى آثارٍ أُخْرى عَلى مَسافَةٍ قَريبَةٍ مِنْها.»

سَأَلَ هولْمز: «هَلْ هِيَ آثارُ أَقْدامٍ؟»

أَجابَ الطَّبيبُ: «أَجَلْ.»

«أَهِيَ آثارُ أَقْدامِ رَجُلٍ أَمِ امْرَأَةٍ؟»

«بَلْ آثارُ أَقْدامِ كَلْبٍ ضَخْمٍ، يا سَيِّدُ هولْمز!»

وَأَحْنى هولْمز رَأْسَهُ إِلى الأَمامِ مِنَ الانْفِعالِ، وَقَدْ بَرَقَتْ عَيْناهُ، ثُمَّ قالَ: «هَلْ رَأَيْتَها بِنَفْسِكَ؟»

أَجابَ الطَّبيبُ: «بِوُضوحٍ تامٍّ، كَما أَراكَ أَمامي الآنَ، يا سَيِّدُ هولْمز.»

«وَهَلْ شاهَدَها شَخْصٌ آخَرُ سِواكَ؟»

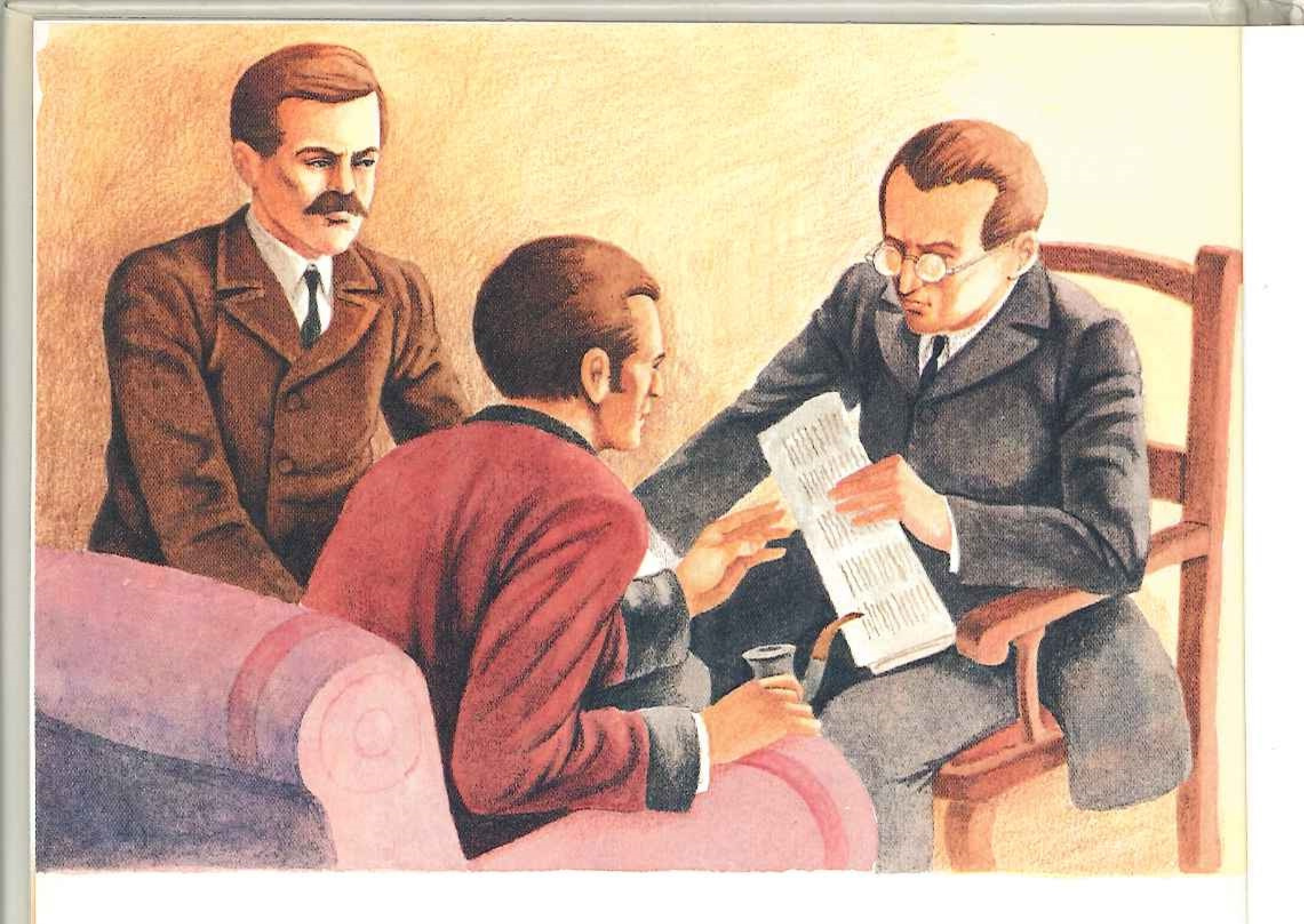
«لا يُخَيَّلُ إِلَيَّ ذٰلِكَ... كانَتْ آثارُ الأَقْدامِ عَلى بُعْدِ حَوالى عِشْرينَ مِتْرًا مِنَ الجُثَّةِ.»

قالَ هولْمز: «توجَدُ كِلابٌ كَثيرَةٌ لِحِراسَةِ الأَغْنامِ في هٰذِهِ المِنْطَقَةِ، عَلى ما أَعْتَقِدُ.»

وجاءَ الرَّدُّ: «هٰذا لَمْ يَكُنْ كَلْبًا لِحِراسَةِ الأَغْنامِ... كانَ كَلْبًا ضَخْمًا هائِلًا.»

«وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَقْتَرِبْ مِنَ الجُثَّةِ أَوْ يَنْهَشْها؟»

أَجابَ الطَّبيبُ: «كَلّا، لَمْ تَكُنْ عَلى الجَسَدِ أَيَّةُ آثارٍ لِجُروحٍ.»



«وَماذا عَنْ آثارِ الأَقْدامِ قُرْبَ البَوّابَةِ؟»

«كانَتْ مُخْتَلِطَةً تَمامًا. كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّ سير تشارْلز قَدْ تَوَقَّفَ هُناكَ لِمُدَّةِ خَمْسِ أَوْ عَشْرِ دَقائِقَ. لَقَدْ لاحَظْتُ رَمادَ سيجارِهِ.»

صاحَ هولْمز قائِلًا وَعَلى شَفَتَيْهِ ابْتِسامَةٌ عَريضَةٌ: «آهِ، يا صَديقي واطْسُن، هٰذا زَميلٌ يَتَّفِقُ مَعَنا تَمامًا، فَهُوَ يُلاحِظُ الأَشْياءَ، ثُمَّ يَسْتَنْبِطُ مِنْها اسْتِنْتاجاتٍ صَحيحَةً. وَلٰكِنْ قُلْ لي، يا دكتور مورْتيمَر: لِماذا لَمْ تَسْتَدْعِني إِلى ديڤونْشايَر في الحالِ؟»

أَجابَ الطَّبيبُ: «لَمْ أَكُنْ موقِنًا مِنْ أَنَّكَ تَسْتَطيعُ مُساعَدَتَنا كَثيرًا في مَجالٍ يَبْدو أَنَّهُ خارِجُ نِطاقِ قَوانينِ الطَّبيعَةِ.»

صاحَ هولْمز بِحِدَّةٍ: «وَهَلْ أَفْهَمُ مِنْ ذٰلِكَ، أَنَّكَ - وَأَنْتَ رَجُلُ عِلْمٍ مُدَرَّبٌ - تُؤْمِنُ حَقيقَةً بِما يُحيطُ بِهٰذِهِ الأُسْطورَةِ مِنْ هُراءٍ شَبيهٍ بِالخُرافاتِ؟»

«حَسَنًا ، يا سَيِّدُ هولْمز ، لا أَكادُ أَعْرِفُ بِماذا يَجِبُ أَنْ أُومِنَ ، بَيْدَ أَنَّ عَدَدًا مِنْ سُكّانِ الأَرْضِ الرَّخْوَةِ يُصِرّونَ على أَنَّهُمْ رَأَوْا كائِنًا وَحْشِيًّا يُشْبِهُ كَلْبَ الأُسْطورَةِ... شَيْئًا شَبيهًا بِشَبَحٍ ضَخْمٍ مُرَوِّعٍ .»

قالَ هولْمز بِابْتِسامَةٍ هادِئَةٍ : «يَجِبُ أَنْ تَعْتَرِفَ بِأَنَّ آثارَ أَقْدامِ الكَلْبِ كانَتْ آثارًا مادِّيَّةً واقِعِيَّةً ، وَأَنَّ الكَلْبَ الأَصْلِيَّ في الأُسْطورَةِ كانَ كَلْبًا واقِعِيًّا فِعْلًا حَتّى إِنَّهُ مَزَّقَ رَقَبَةَ الرَّجُلِ . وَلٰكِنْ إذا كُنْتَ في شَكٍّ مِنْ مَقْدِرَتي على مُساعَدَتِكَ ، فَلِماذا تَطْلُبُ مِنّي أَصْلًا هٰذِهِ المُساعَدَةَ؟»

«السَّبَبُ ، يا سَيِّدُ هولْمز ، هُوَ أَنَّ الوَريثَ الشَّرْعِيَّ لِضَيْعَةِ باسْكَرْڤيل ، وَهُوَ سير هنري باسْكَرْڤيل ، سَوْفَ يَصِلُ مِنْ كندا بَعْدَ ساعَتَيْنِ . وَفي ضَوْءِ ما حَدَثَ ، أُحِبُّ أَنْ أَهْتَدِيَ بِنَصيحَتِكَ عَمّا إذا كانَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ أَصْحَبَهُ مُباشَرَةً إلى قَصْرِ باسْكَرْڤيل ، أَوْ أَبْقى مَعَهُ في لندن فَتْرَةً مِنَ الوَقْتِ .»

سَأَلَ هولْمز : «هَلْ يوجَدُ مُطالِبٌ آخَرُ بِالضَّيْعَةِ وَاللَّقَبِ؟»

أَجابَ الطَّبيبُ : «كَلّا ، فَقَدْ كانوا ثَلاثَةَ إِخْوَةٍ : أَكْبَرُهُمْ تشارلز ، الَّذي ماتَ كَما نَعْرِفُ ، وَثانيهِمْ هُوَ والِدُ سير هنري ، وَقَدْ قَضى نَحْبَهُ شابًّا ، أَمّا أَصْغَرُهُمْ – وَيُدْعى رودجر – فَكانَ الشَّخْصَ الفاسِدَ في هٰذِهِ الأُسْرَةِ المُحْتَرَمَةِ . كانَ عَنيفًا وَهَمَجِيًّا مِثْلَ جَدِّهِ «هوغو» ، وَلِكَيْ يُفْلِتَ مِنَ المُشْكِلاتِ الَّتي أَحاطَتْ بِهِ ، فَقَدْ هَرَبَ إلى أَواسِطِ أَمريكا ، حَيْثُ ماتَ مِنَ الحُمّى الصَّفْراءِ عامَ ١٨٧٦ . وَهٰكَذا يُصْبِحُ سير هنري هُوَ الأَخيرَ مِنْ سُلالَةِ «باسكرڤيل» الَّذي يَسْتَحِقُّ الضَّيْعَةَ . وَالآنَ ، يا سَيِّدُ هولْمز ، بِماذا تَنْصَحُني أَنْ أَفْعَلَ؟»

«أَفْسِحْ لي وَقْتًا حَتّى أَتَدَبَّرَ الأَمْرَ . وَالآنَ خُذْ سير هنري إلى فُنْدُقٍ ، يا دكتور مورْتيمَر ، ثُمَّ عُدْ بِهِ إلى هُنا في العاشِرَةِ مِنْ صَباحِ الغَدِ .»

وَبَعْدَ ذَهابِ الدّكتور مورْتيمَر ، طَلَبَ مِنّي هولْمز أَنْ أُوافِيَهُ بِبَعْضِ التَّبْغِ القَوِيِّ ، ثُمَّ دَعاني أَنْ أَزورَهُ في المَساءِ . وَعِنْدَما عُدْتُ إِلَيْهِ في السّاعَةِ الثّامِنَةِ حَسَبَ المَوْعِدِ ، كانَ

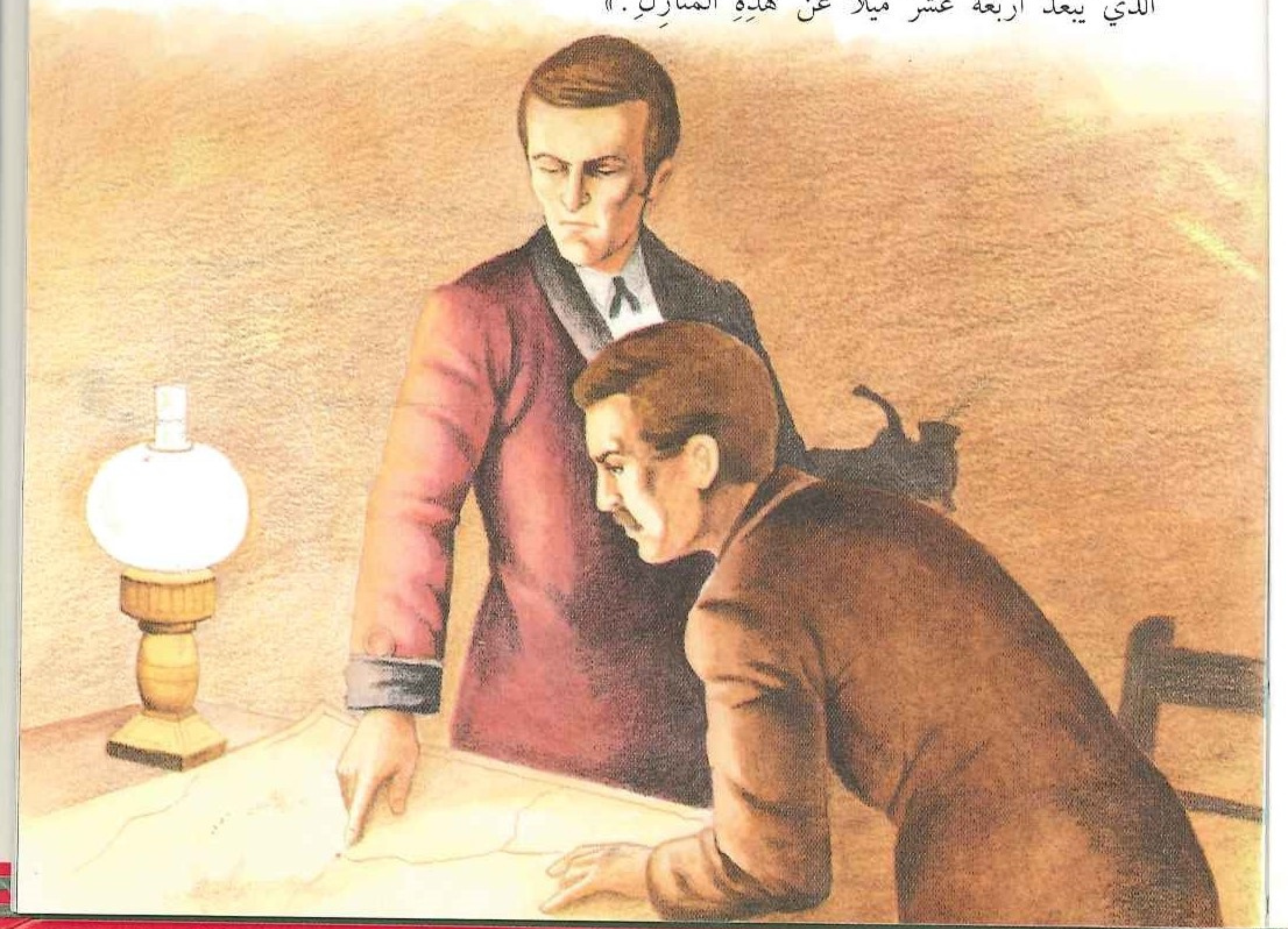
يُدَخِّنُ غَلْيونَهُ الأَسْوَدَ وَكانَ جَوُّ الغُرْفَةِ مَليئًا بِسُحُبِ الدُّخانِ . وَاضْطُرِرْتُ لِفَتْحِ النّافِذَةِ حَتّى يَتَجَدَّدَ الهَواءُ .

قالَ هولْمز : «حَسَنٌ ، لَقَدْ قَضَيْتُ بَعْضَ الوَقْتِ في ديڤونْشاير .»

«بِالرّوحِ ، طَبْعًا؟»

«بِالضَّبْطِ ، وَبِمُساعَدَةِ قَدَحَيْنِ مِنَ القَهْوَةِ ، وَكَمِّيَّةٍ كَبيرَةٍ مِنَ التَّبْغِ ، وَخَريطَةٍ واضِحَةٍ جَيِّدَةٍ .»

وَبَسَطَ الرَّجُلُ أَمامي خَريطَةً كَبيرَةً لِمِنْطَقَةِ «جرمْبن» ، وَعَلى تِلْكَ الخَريطَةِ أَشارَ إلى مَواقِعِ قَصْرِ باسْكَرْڤيل ، وَقَصْرِ لافتر الَّذي يَسْكُنُهُ السَّيِّدُ فرانكلاند ، وَبَيْتِ «ميريبت» الَّذي يَعيشُ فيهِ السَّيِّدُ ستيبلتون ، عالِمُ التّاريخِ الطَّبيعِيِّ . كَما أَشارَ إلى مَوْقِعَيْ مَنْزِلَيْنِ ريفِيَّيْنِ آخَرَيْنِ : «هاي تور» وَ«فولْماير» . وَعَلى الخَريطَةِ كانَ هُناكَ سِجْنُ «برنستون» الَّذي يَبْعُدُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ ميلًا عَنْ هٰذِهِ المَنازِلِ .»



سألني صديقي هولمز: «هل فكَّرتَ في هذه القضيَّة، يا واطسن؟»

«أجل، وأجدها مُحيِّرة للغاية.»

«وما رأيك في التغيُّر الذي حدث في آثار الأقدام؟»

أجبتُ: «يقول الدكتور مورتيمر إنَّ سير تشارلز كان يمشي على أصابع قدميه بعدما تخطَّى البوَّابة.»

«آه، يا واطسن! لم يكن سير تشارلز يمشي، إنَّه كان يعدو عدوًا... يعدو في رُعبٍ كي ينجو بحياته... حتَّى توقَّف قلبه وسقط ميتًا.»

سألتُ في عجب: «يعدو؟ يعدو من ماذا؟»

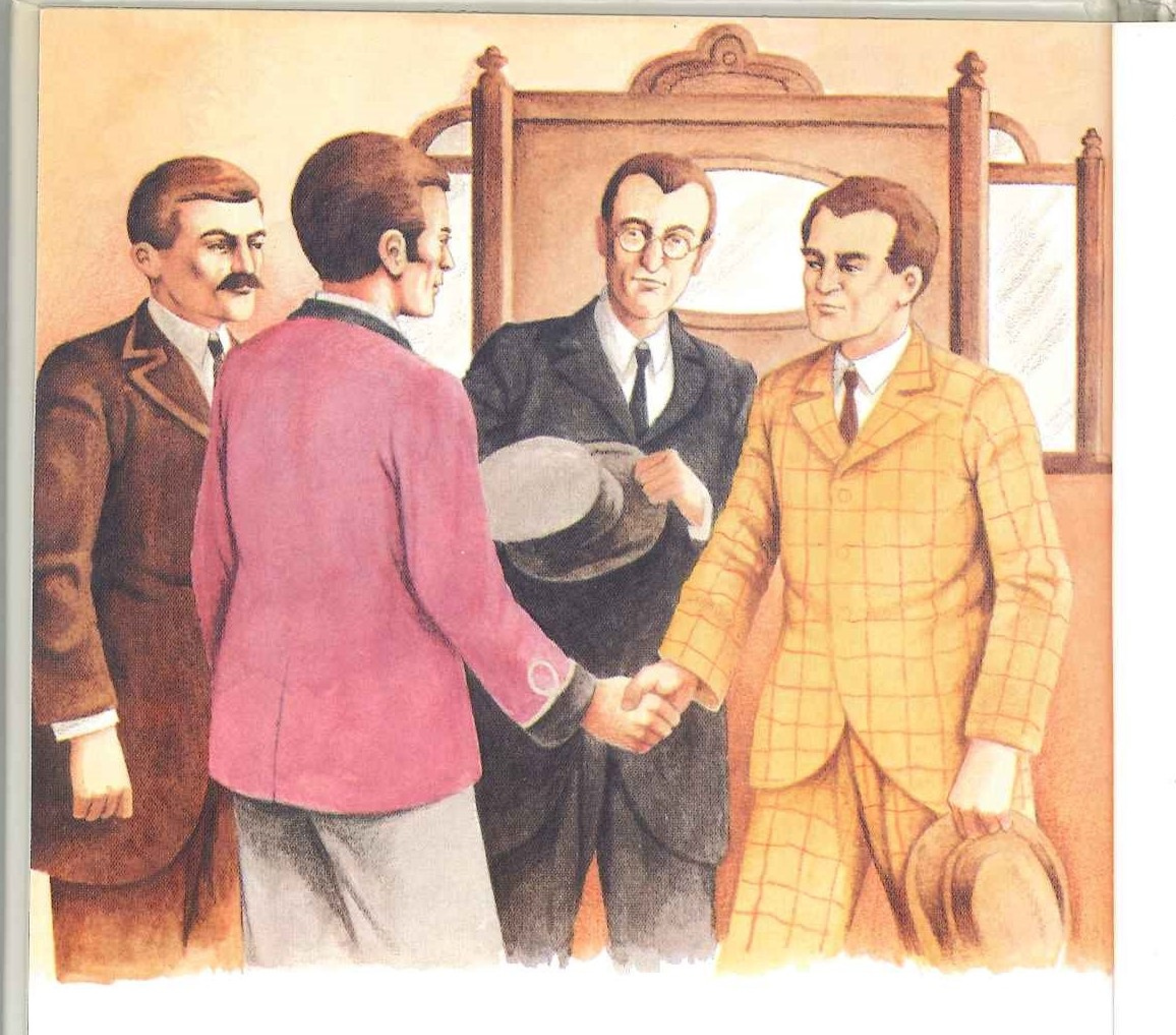
«من شيءٍ ما سبَّب له ذعرًا كبيرًا حتَّى إنَّه فقد صوابه وجرى بعيدًا عن البيت بدلًا من أن يجري نحوه. ولكن يبدو أنَّه كان ينتظر شخصًا ما ليقابله عند البوَّابة. وهنا يبرز سؤال: لماذا عند البوَّابة وليس في منزله؟»

قلتُ: «أتظنُّ أنَّه كان ينتظر شخصًا ما؟»

أجاب هولمز: «أجل.. كان سير تشارلز، في العادة، يتجنَّب الذهاب في الليل إلى أيِّ مكانٍ قرب المستنقعات، وهكذا فإنَّ شيئًا خاصًّا هو الذي أغراه بالمغامرة بالسير في طريق «يو» ذلك المساء.. أجل، لا بُدَّ أنَّه سار للقاء شخصٍ ما.»

وفي الصباح التالي، وصل الدكتور مورتيمر في موعده تمامًا وبصحبته سير هنري باسكرفيل. كان سير هنري رجلًا قويًّا ثابتًا ذا عينين سوداوين وحاجبين كثيفين، وكان يرتدي حُلَّة من النسيج الصوفيِّ الخشن، وكأنَّه يتأهَّب لرحلة في الخلاء.

وبعد المقدِّمات المعتادة أخرج سير هنري خطابًا وصله إلى الفندق في بريد الصباح. كان العنوان باسمه شخصيًّا، وعلى فندق نورثمبرلاند بالتحديد، وكان هذا شيئًا مُلفتًا للنظر، فإنَّ أحدًا لا يعرف أنَّ الدكتور مورتيمر وسير هنري يقيمان في ذلك الفندق، ما لم يكن هناك من يقتفي أثرهما.



وبداخل الظرف كانت هناك قصاصة من الورق لا غير لُصقت عليها رسالة مكوَّنة من مجموعة كلمات مقصوصة من إحدى الجرائد (وكان الواضح من ذلك أنَّ المرسل يريد إخفاء خطِّ يده). وكانت الرسالة تتألَّف من الكلمات التالية:

«إذا كنتَ تريد إنقاذ حياتك من الموت أو عقلك من الجنون فاجتنب السير فوق أرض المستنقعات.»

وفحص هولمز نسخته من صحيفة التايمز التي تعود إلى اليوم السابق، فاكتشف أنَّ المقال الافتتاحيَّ يتضمَّن جميع كلمات الرسالة فيما عدا كلمة «المستنقعات» وعندما



نَظَروا لِلرِّسالَةِ عَنْ كَثَبٍ، ٱسْتَطاعوا أَنْ يَرَوْا أَنَّ هٰذِهِ الكَلِمَةَ لَمْ تَكُنْ في الواقِعِ مُلْصَقَةً عَلى الوَرَقَةِ – شَأْنَ سائِرِ الكَلِماتِ – وَلٰكِنَّها كانَتْ مَكْتوبَةً بِاليَدِ وَيَبْدو عَلَيْها عَدَمُ الٱسْتِواءِ.

قالَ هولْمز: «آهٍ، نَعَمْ! لَقَدْ كُتِبَتْ هٰذِهِ الكَلِمَةُ عَلى عَجَلٍ، وَرُبَّما بِريشَةٍ غَريبَةٍ.. يَبْدو أَنَّها كُتِبَتْ في فُنْدُقٍ.»

وَأُلْغِزَ عَلى سير هنري تَمامًا، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ صاحَ قائِلًا: «تُرى لِأَيِّ سَبَبٍ في الوُجودِ يُمْكِنُ أَنْ يَتَتَبَّعَني شَخْصٌ ما وَيُرْسِلَ إِلَيَّ مِثْلَ هٰذا الإِنْذارِ؟»

أَجابَ هولْمز: «سَوْفَ نَتَعَرَّضُ لِهٰذِهِ النُّقْطَةِ فيما بَعْدُ، وَلٰكِنْ هَلْ حَدَثَ شَيْءٌ آخَرُ غَريبٌ؟»

قالَ سير هَنْري وَهُوَ يَبْتَسِمُ: «حَسَنٌ، يَبْدو أَنَّني فَقَدْتُ إِحْدى فَرْدَتَيْ حِذائي الجَديدِ الَّذي ٱشْتَرَيْتُهُ بِالأَمْسِ. لَقَدْ وَضَعْتُ فَرْدَتَيِ الحِذاءِ خارِجَ بابِ غُرْفَةِ نَوْمي لَيْلًا لِيَقومَ

ماسِحُ الأَحْذِيَةِ بِتَلْميعِهِما، وَفي الصَّباحِ أَعادَ الغُلامُ فَرْدَةً واحِدَةً، دونَ أَنْ يَسْتَطيعَ التَّعْليلَ لِغِيابِ الفَرْدَةِ الأُخْرى. وَالشَّيْءُ المُثيرُ لِلْغَضَبِ هُوَ أَنَّني لَمْ أَلْبَسِ الحِذاءَ بَعْدُ عَلى الإِطْلاقِ.»

عَلَّقَ هولْمز قائِلًا: «إِنَّهُ شَيْءٌ مُثيرٌ لِلْغَضَبِ فِعْلًا، وَلٰكِنَّ الحِذاءَ المَفْقودَ قَدْ يَكونُ مُرْتَبِطًا – عَلى نَحْوٍ ما – بِاللُّغْزِ الَّذي نَلْهَثُ وَراءَهُ. يَجِبُ أَنْ نَنْتَظِرَ لِنَرى ما سَوْفَ يَكْشِفُ عَنْهُ البَحْثُ وَالتَّقَصّي.»

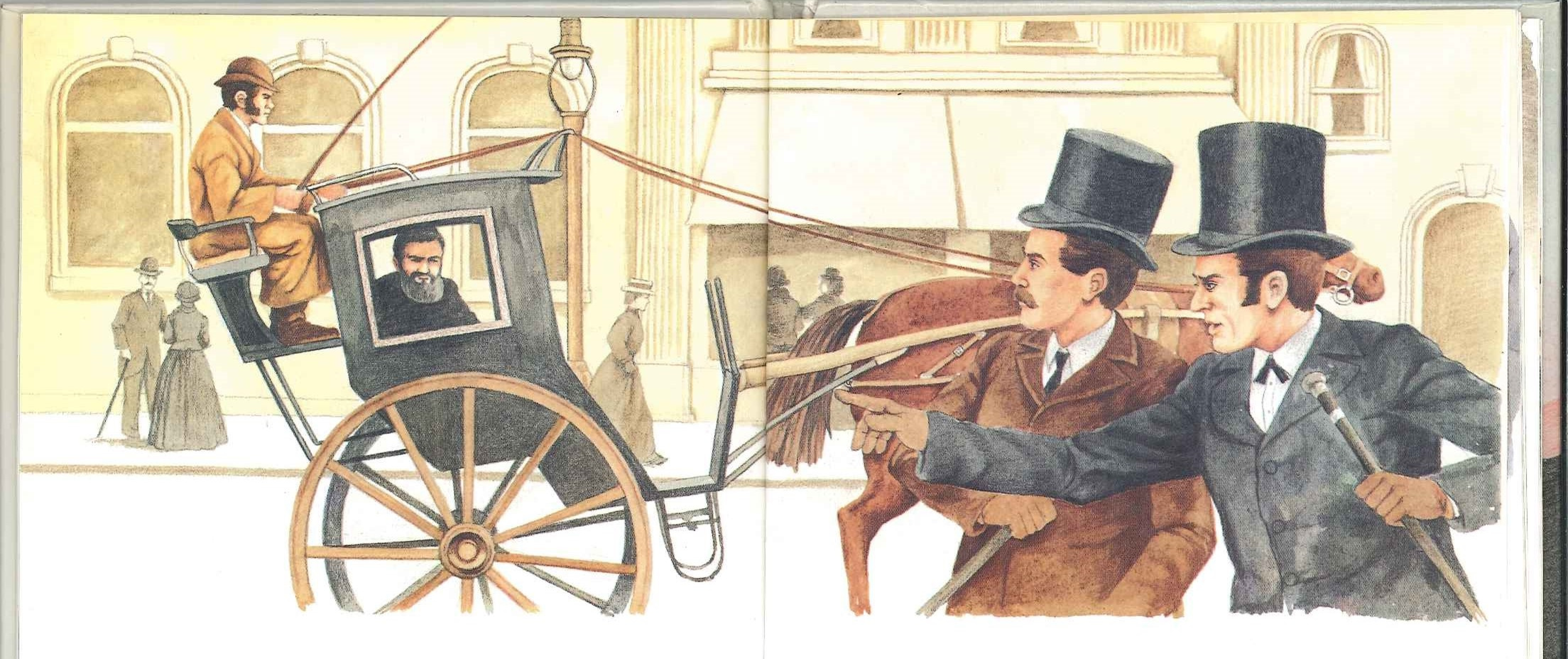
وَأَخْبَرَنا سير هَنْري أَنَّهُ قَدْ سَمِعَ بِأُسْطورَةِ الكَلْبِ مُنْذُ وَقْتٍ بَعيدٍ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْها أَبَدًا مَأْخَذَ الجِدِّ. عَلى أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ وافَقَ عَلى أَنَّ عَمَّهُ سير تشارلز إِمّا أَنْ يَكونَ قَدِ ٱرْتَعَبَ صُدْفَةً حَتّى المَوْتِ مِنْ شَيْءٍ شاذٍّ خارِقٍ لِلطَّبيعَةِ، أَوْ رُبَّما أَرْعَبَهُ عِنْدَ البَوّابَةِ شَخْصٌ ما عَنْ عَمْدٍ وَسَبْقِ إِصْرارٍ.

وَأَضافَ الدكتور مورتيمر قائِلًا: «يَبْدو مِنَ الخِطابِ أَنَّ هُناكَ شَخْصًا يَعْرِفُ أَكْثَرَ مِمّا نَعْرِفُ نَحْنُ عَمّا يَجْري عَلى أَرْضِ المُسْتَنْقَعاتِ.»

قاطَعَهُ هولْمز قائِلًا لِسير هَنْري: «وَمَعَ ذٰلِكَ، فَبِما أَنَّهُمْ يُحَذِّرونَكَ مِنَ الخَطَرِ، يا سير هَنْري، فَإِنَّهُ يَبْدو أَنَّهُمْ لا يُريدونَ لَكَ الضَّرَرَ.»

قالَ سير هَنْري: «أَوْ رُبَّما يُريدونَ لِسَبَبٍ ما إِصابَتي بِالذُّعْرِ، وَلٰكِنْ لَنْ يَمْنَعَني شَيْءٌ مِنَ الذَّهابِ إِلى مَنْزِلي. سَوْفَ أَسْلُكُ حالًا طَريقي إِلى قَصْرِ باسْكَرْفيل، مَهْما يَحْدُثْ مِنْ أَمْرٍ.»

وَما إِنْ غادَرَنا الضَّيْفانِ، حَتّى أَصَرَّ هولْمز عَلى أَنْ نَسيرَ وَراءَهُما حَتّى الفُنْدُقِ. وَتَبِعْناهُما وَهُما يَمْشِيانِ في شارِعِ أكسفورد ثُمَّ يَدْلِفانِ إِلى شارِعِ ريجنت، وَكُنّا حَريصَيْنِ أَلّا نَفْقِدَ مَرْآهُما عَنْ بُعْدٍ. وَفَجْأَةً تَوَقَّفَ هولْمز قائِلًا: «هٰذا هُوَ الرَّجُلُ الَّذي نَنْشُدُهُ، يا واطْسُن، يَقْبَعُ في تِلْكَ العَرَبَةِ. يَجِبُ عَلى الأَقَلِّ أَنْ نُلْقِيَ عَلَيْهِ نَظْرَةً فاحِصَةً.»



وَلَمّا جَرَيْنا نَحْوَ العَرَبَةِ لِنَنْظُرَ إِلَيْهِ عَنْ قُرْبٍ ، أَمَرَ الرَّجُلُ السّائِقَ أَنْ يُلْهِبَ ظَهْرَ الجَوادِ لِيُسْرِعَ بِالعَرَبَةِ بَعيدًا . لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَفْعَلَ أَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ، بَيْدَ أَنَّنا نَجَحْنا – بِنَظْرَةٍ خاطِفَةٍ إِلى الرَّجُلِ الَّذي في العَرَبَةِ – في رُؤْيَةِ لِحْيَتِهِ السَّوْداءِ الكَثَّةِ وَعَيْنَيْهِ النّافِذَتَيْنِ ، وَأَنَّ رَقْمَ تَسْجيلِ العَرَبَةِ هُوَ ٢٧٠٤ .

تَوَجَّهَ هولْمز عَقِبَ ذٰلِكَ إِلى مَكْتَبِ اسْتِخْدامٍ ، وَٱسْتَأْجَرَ مُساعِدًا شابًّا عَمِلَ مَعَنا مِنْ قَبْلُ ٱسْمُهُ : كارتْرايت . وَأَمَرَ هولْمز الشّابَّ بِزِيارَةِ كُلِّ الفَنادِقِ الَّتي تَقَعُ في مِنْطَقَةِ تشيرِنْغ كروس" ، وَٱلَّتي مِنْ بَيْنِها فُنْدُقُ نورثِمبرلاند نَفْسُهُ ، وَالاِسْتِئْذانِ لِلتَّنْقيبِ في سِلالِ وَصَناديقِ المُهْمَلاتِ بَحْثًا عَنْ نُسْخَةٍ مِنْ جَريدَةِ «التايمز» الَّتي صَدَرَتْ أَمْسِ بِها ثُقوبٌ في المَقالَةِ

الاِفْتِتاحِيَّةِ . وَٱعْتَرَفَ هولْمز لِكارتْرايت بِأَنَّ فُرَصَ النَّجاحِ في تِلْكَ المُهِمَّةِ ضَئيلَةٌ لِلْغايَةِ ، وَلٰكِنْ أَخْبَرَهُ أَنْ يُبْرِقَ إِلَيْهِ فَوْرَ العُثورِ عَلى شَيْءٍ .

صاحَ هولْمز قائِلًا : «والآنَ ، يا واطْسُن ، يَبْقى أَمامَنا فَقَطْ أَنْ نَكْتَشِفَ شَخْصِيَّةَ سائِقِ العَرَبَةِ ذاتِ الرَّقْمِ ٢٧٠٤ ، وَنَجْمَعَ مَعْلوماتٍ أَكْثَرَ عَنْ صَديقِنا المُلْتَحي الَّذي تَمَكَّنَ مِنَ الإِفْلاتِ .»

وَخِلالَ فَتْرَةِ العَصْرِ أَصَرَّ هولْمز عَلى أَنْ يَلْتَمِسَ الرّاحَةَ وَالاِسْتِجْمامَ في مَعْرِضٍ لِلْفَنِّ الحَديثِ ، وَعِنْدَما حانَ وَقْتُ تَناوُلِ الشّاي قُمْنا بِزِيارَةِ سير هَنْري في فُنْدُقِهِ . وَوَجَدْناهُ عَلى مُنْبَسَطِ الدَّرَجِ خارِجَ حُجْرَتِهِ ، يُرْغي وَيُزْبِدُ مِنَ الغَضَبِ ، وَيُلَوِّحُ بِفَرْدَةِ حِذاءٍ قَديمٍ

أَسْوَدَ ؛ إِنَّ أَحَدَهُمْ لَمْ يَكْتَفِ بِسَرِقَةِ فَرْدَةِ حِذائِهِ البُنِّيِّ الجَديدِ ، بَلْ تَعَدّى ذٰلِكَ إِلى نَشْلِ أُخْرى مِنْ حِذائِهِ الأَسْوَدِ القَديمِ .

صاحَ سير هَنْري : «لَعَمْري ، إِنَّهُ شَيْءٌ يُثيرُ السُّخْرِيَّةَ ، وَلٰكِنَّهُمْ لَنْ يُفْلِتوا بِأَلاعيبِهِمْ تِلْكَ . سَوْفَ أَشْكو لِلْمُديرِ وَأُطالِبُ بِالتَّعْويضِ اللاّزِمِ . أَلا تَفْعَلُ هٰذا يا سَيِّدُ هولْمز لَوْ كُنْتَ مَكاني ؟»

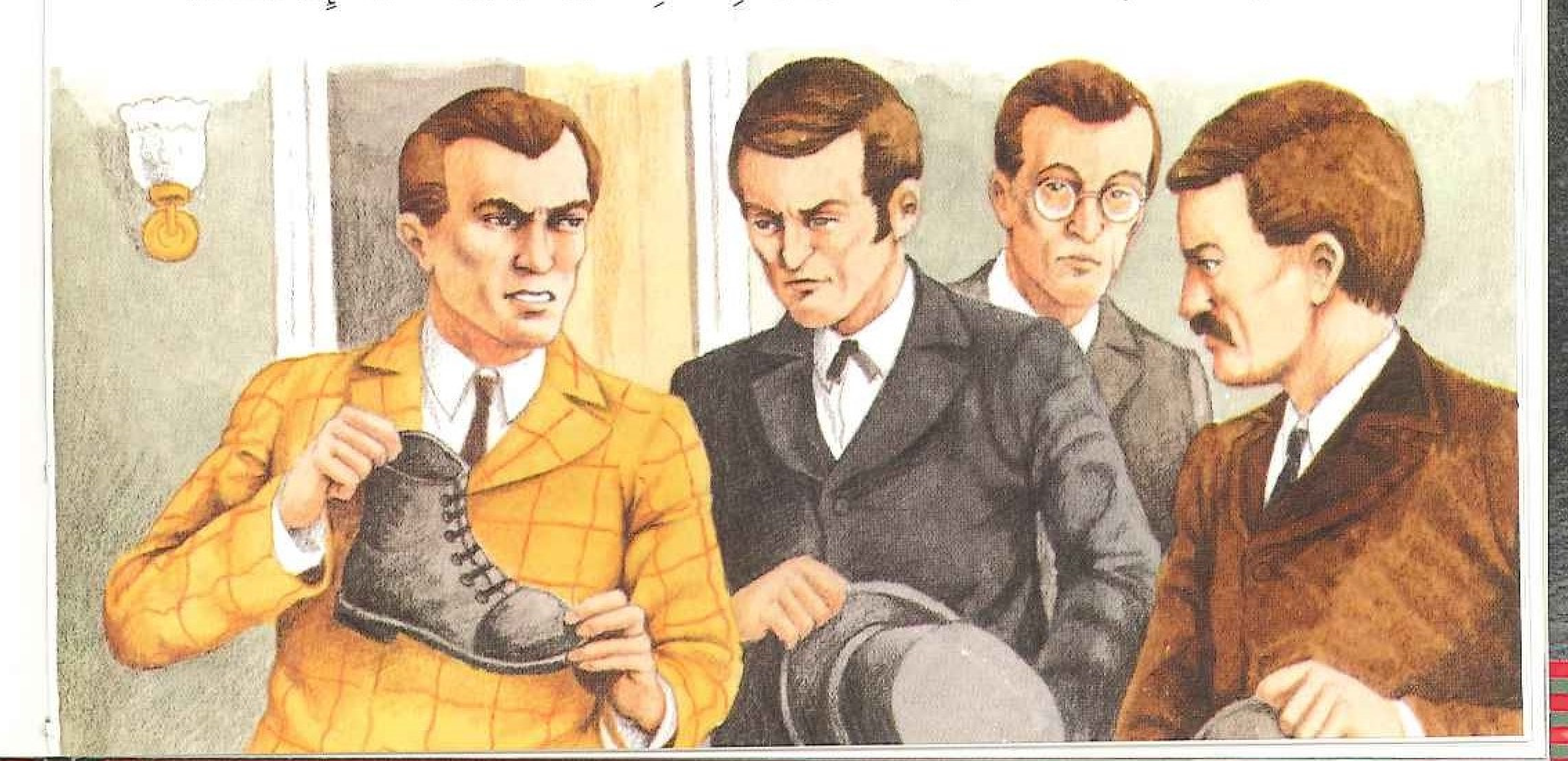
تَمْتَمَ هولْمز وَهُوَ يُفَكِّرُ بِعُمْقٍ : «إِنَّهُ أَمْرٌ غَريبٌ حَقًّا ، وَلٰكِنْ ها نَحْنُ نُمْسِكُ بِعِدَّةِ خُيوطٍ في أَيْدينا آخِرَ الأَمْرِ . عَلى أَنَّني أَعْتَقِدُ ، يا سَيِّدُ هَنْري ، أَنَّ أَفْضَلَ ما تَفْعَلُهُ الآنَ هُوَ الذَّهابُ إِلى قَصْرِ باسْكَرْڤيل في أَسْرَعِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ . وَأَحَدُ أَسْبابِ ذٰلِكَ هُوَ أَنَّهُم يَتَتَبَّعونَكَ الآنَ في لندن .»

وَقَفَزَ الدّكتور مورتيمر بِشِدَّةٍ ، وَهُوَ يَسْأَلُ : «مَنِ الَّذي يَتَتَبَّعُهُ ؟»

أَجابَ هولْمز : «لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُقَدِّمَ جَوابًا شافِيًا ؛ وَلٰكِنْ أَخْبِرْني : هَلْ هُناكَ شَخْصٌ ذو لِحْيَةٍ كَثَّةٍ سَوْداءَ يَعيشُ قُرْبَ المُسْتَنْقَعاتِ ؟»

أَجابَ الدّكتور مورْتيمر : «السَّيِّدُ باريمور فَحَسْبُ ، الخادِمُ الأَوَّلُ لِسير تشارلز . إِنَّ لَهُ لِحْيَةً سَوْداءَ الشَّعْرِ . وَهُوَ المَسْؤولُ عَنِ العِنايَةِ بِالقَصْرِ ، وَتُساعِدُهُ زَوْجَتُهُ في ذٰلِكَ .»

«يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ حالًا ما إِذا كانَ مَوْجودًا بِالقَصْرِ ، فَلَرُبَّما يَكونُ قَدْ جاءَ إِلى لندن .»



وَتَناوَلَ هولْمز أُنْموذَجًا رَسْمِيًّا لِبَرْقِيَّةٍ وَكَتَبَ فيهِ : «هَلْ كُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ لِاسْتِقْبالِ سير هَنْري ؟» وَأَرْسَلَ البَرْقِيَّةَ بِعُنْوانِ : «باريمور ، بِقَصْرِ باسْكَرْڤيل .»

ثُمَّ أَرْسَلَ بَرْقِيَّةً أُخْرى إِلى مُديرِ مَكْتَبِ البَرْقِ في «جرمْبِن» ، هٰذا نَصُّها : «هُناكَ بَرْقِيَّةٌ لِباريمور لِتُسَلَّمَ لَهُ شَخْصِيًّا ؛ فَإِذا لَمْ يَكُنْ مَوْجودًا أَخْطِروا سير هَنْري باسْكَرْڤيل ، بِفُنْدُقِ نورثمبرلاند ، بلندن .»

وَالْتَفَتَ هولْمز إِلى الدّكتور مورتيمر قائِلًا : «حَدِّثْني أَكْثَرَ عَنْ هٰذا الرَّجُلِ الَّذي يُدْعى باريمور .»

أَجابَ الطَّبيبُ : «لَقَدْ خَدَمَتْ عائِلَةُ باريمور آلَ باسْكَرْڤيل عِدَّةَ أَجْيالٍ ، وَهُمْ قَوْمٌ يَتَمَيَّزونَ بِالإِخْلاصِ وَجَديرونَ بِالثِّقَةِ . وَالواقِعُ أَنَّ سير تشارلز وَعَدَ بِأَنْ يَهَبَ كُلًّا مِنْ خادِمِهِ وَزَوْجَتِهِ مَبْلَغَ خَمْسِمِئَةِ جُنَيْهٍ ، وَأَدْرَجَ ذٰلِكَ في وَصِيَّتِهِ .»

سَأَلَ هولمز في نَبْرَةٍ تَنِمُّ عَنِ الشَّكِّ : «وَهَلْ عَرَفوا بِهٰذا الأَمْرِ ؟»

«أَجَلْ ، فَلَقَدْ تَناوَلَ سير تشارلز الأَمْرَ في حَديثٍ لَهُ بِصَراحَةٍ . وَلٰكِنْ ، يا سَيِّدُ هولمز ، عَسى أَلّا تَشُكَّ في كُلِّ شَخْصٍ تَلَقّى ميراثًا شَرْعِيًّا عَنْ سير تشارلز . لَقَدْ تَرَكَ لي شَخْصِيًّا أَلْفَ جُنَيْهٍ في وَصِيَّتِهِ !»

قالَ هولْمز : «يَبْدو أَنَّ القيمَةَ الكُلِّيَّةَ لِضَيْعَةِ باسكرڤيل تَبْلُغُ مِقْدارًا كَبيرًا مِنَ المالِ .»

أَجابَ الدّكتور مورتيمر : «إِنَّها كَذٰلِكَ في واقِعِ الأَمْرِ ؛ فَإِنَّ إيراداتِ الضَّيْعَةِ وَحْدَها - أَيِ الأَرْصِدَةُ ، وَالنُّقودُ ، وَالإيجاراتُ ، وَالاسْتِثْماراتُ - تَصِلُ قيمَتُها إِلى سَبْعِمِئَةٍ وَأَرْبَعينَ أَلْفًا مِنَ الجُنَيْهاتِ . فَإِذا أَضَفْنا إِلى ذٰلِكَ القَصْرَ وَالأَراضِيَ ، فَإِنَّ التَّرِكَةَ كُلَّها تُساوي أَكْثَرَ مِنْ مِلْيونِ جُنَيْهٍ . غَيْرَ أَنَّ المالِكَ يُمْكِنُ أَنْ يُورِثَ الإيراداتِ بِشَكْلٍ مُنْفَصِلٍ عَنِ القَصْرِ وَالأَراضي .

صاحَ هولْمز قائِلًا : «يا إِلٰهي ! ها نَحْنُ أَمامَ جائِزَةٍ تُغْري المَرْءَ بِأَنْ يَفْعَلَ المُسْتَحيلَ لِلْفَوْزِ بِها . لٰكِنْ أَجِبْني عَنْ سُؤالٍ واحِدٍ أَخيرٍ ، يا دكتور مورْتيمر : إِذا ما حَدَثَ مَكْروهٌ لِسير هَنْري ، فَمَنْ يَرِثُ الضَّيْعَةَ ؟»

أجابَ الدكتور مورتيمر: «نظرًا لأنَّ «رودجر»، الأخَ الأصغرَ الفاسدَ لسير تشارلز، قد ماتَ عَزَبًا في جنوبِ أمريكا، فسوفَ تؤولُ الضَّيعةُ إلى ابنِ عمٍّ بعيدٍ يُدعى «جيمس ديسموند»، وهُوَ كاهنٌ متقدِّمٌ في السنِّ نسبيًّا ويقطُنُ في شمالِ إنجلترا. ولقد زارَ هذا الرَّجُلُ سير تشارلز في إحدى المناسباتِ فعلِمَ أنَّهُ منَ المُستحقِّينَ وراثةَ الضَّيعةِ، ولكنَّهُ – لِسَببٍ ما – رفضَ قبولَ الجزءِ المُخصَّصِ لَهُ. ولمّا كانَ الأمرُ كذلِكَ، فقدْ أصبحَ سير هنري حرًّا في أنْ يوصيَ بالجزءِ الأساسيِّ المُهمِّ منَ التركةِ للشخصِ الذي يختارُهُ.»

التفتَ هولمز إلى سير هنري قائلًا: «حسَنٌ، يا سير هنري، وهلْ أوصيتَ بشيءٍ فعلًا؟»

«كلّا، لمْ يكُنْ لديَّ وقتٌ لذلِكَ، ولكنَّني بالتأكيدِ لا أُوافقُ على رفضِ ابنِ عمّي. إنّي أعتقدُ أنَّ ريعَ الضَّيعةِ منَ المالِ، معَ الأرضِ نفسِها يجبُ أنْ يسيرا جنبًا إلى جنبٍ حتّى يتمكّنَ صاحبُ الضَّيعةِ منَ الإبقاءِ عليها، وهذا يؤثّرُ على الأنحاءِ المُجاورةِ برُمَّتِها في نهايةِ الأمرِ.»

قالَ هولمز: «هذا صحيحٌ تمامًا، ولكنْ حانَ الوقتُ الآنَ للتفكيرِ في رحيلِكَ إلى قصرِ باسكرڤيل لتفقُّدِ أملاكِكَ بنفسِكَ. غيرَ أنَّهُ يجبُ ألّا تذهبَ بمُفردِكَ على أيّةِ حالٍ. وبما أنَّ وقتَ الدكتور مورتيمر لنْ يتّسعَ لمُرافقتِكَ لانشغالِهِ بعملِهِ الخاصِّ، فإنّي أقترحُ أنْ يُرافقَكَ الدكتور واطسُن.»

فاجأني هذا الطلبُ، ولكنْ قبلَ أنْ أتمكّنَ منَ الاعتذارِ، هزَّ سير هنري يدي مُصافحًا وهُوَ يقولُ: «حسَنٌ، هذهِ مِنّةٌ منكَ لنْ أنساها. أشكُرُكَ جدًّا، يا دكتور واطسُن.» وهكذا فرضَ الأمرُ الواقعُ نفسَهُ عليَّ!

غيرَ أنَّ هولمز أوضحَ بأنَّهُ سيكونُ هُوَ نفسُهُ مشغولًا في لندن، كما أوصاني بأنْ أُخطِرَهُ أوّلًا بأوّلٍ بتفاصيلِ الأحداثِ في ديڤونشاير.

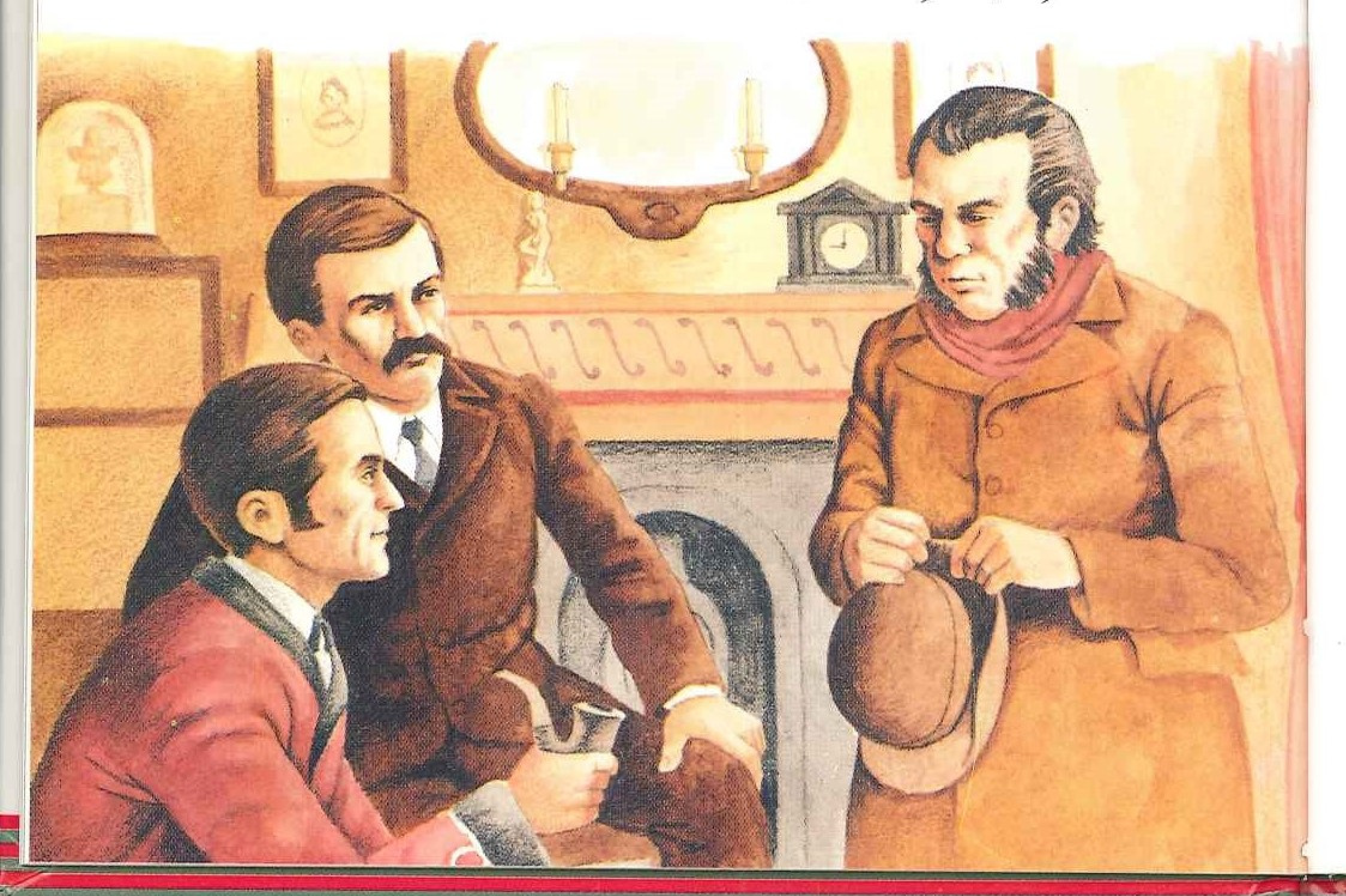
ولكنْ حدثَ شيءٌ غريبٌ عندَ مُغادرتِنا للفُندُقِ: فلقدِ استرعى نظرَ سير هنري فجأةً ظهورُ حذائِهِ البُنّيِّ الجديدِ المفقودِ في أحدِ أركانِ الحُجرةِ!

صاحَ الرَّجُلُ في استغرابٍ: «إنَّهُ لشيءٌ مُذهِلٌ حقًّا! لقدْ فتّشنا الحُجرةَ جيّدًا قُبيلَ الغداءِ، أنا والدكتور مورتيمر معًا، بحثًا عنْ هذا الحذاءِ.»

واستدعَوا الصّبيَّ المُكلَّفَ بتنظيفِ الأحذيةِ، ولكنَّهُ عجزَ تمامًا عنْ تفسيرِ الواقعةِ. وهكذا ظلَّ الأمرُ برُمَّتِهِ لُغزًا خافيًا.

وفي طريقِ عودتِنا إلى المنزلِ في شارعِ بيكر أخذتُ، أنا وهولمز، نُفكّرُ بعُمقٍ في حلِّ مُعمّياتِ هذهِ السلسلةِ الغريبةِ منَ الأحداثِ المُستعصيةِ على التفسيرِ: تلقّي الرسالةِ ذاتِ الحروفِ المطبوعةِ – جاسوسُ العربةِ ذو اللحيةِ السوداءِ – اختفاءُ الحذاءِ البُنّيِّ الجديدِ ثُمَّ ظهورُهُ مرّةً أُخرى – وأخيرًا فقدُ الحذاءِ الأسودِ القديمِ. ولمْ نستطعِ التنسيقَ بينَ هذهِ الوقائعِ أوِ استنباطَ أيّةِ نتائجَ منطقيّةٍ واضحةٍ. بيدَ أنّها كانتْ – بالتأكيدِ – مفاتيحَ للُغزٍ ما ينبغي حلُّهُ.

على أنّنا تلقّينا برقيّتَينِ قُبيلَ الغداءِ: إحداهُما منْ سير هنري، تقولُ: «سمعتُ للتوِّ أنَّ باريمور مُتواجدٌ في قصرِ باسكرڤيل.»، والأُخرى تحملُ الكلماتِ التاليةَ: «زُرتُ ثلاثةَ



وَعِشْرِينَ فُنْدُقًا ، وَلٰكِنْ لَمْ أَجِدْ فيها – لِلأَسَفِ – أَيَّ أَثَرٍ لِقُصاصاتٍ مِنْ صَحيفَةِ التايمز – كارترايت .»

قالَ هولْمز مُعَلِّقًا : «وَهٰكَذا يُفْلِتُ مِنّا خَيْطانِ مِنْ خُيوطِ التَّحَرّي وَالبَحْثِ ، غَيْرَ أَنَّني ما زِلْتُ أَتَطَلَّعُ إلى الحُصولِ عَلى مَعْلوماتٍ مِنْ سائِقِ العَرَبَةِ ٢٧٠٤ » .

وَلَمّا عَلِمَ سائِقُ العَرَبَةِ المَذْكورَةِ بِالاَسْتِفْسارِ المُقَدَّمِ مِنْ هولْمز في مَكْتَبِ تَسْجيلِ العَرَباتِ ، بادَرَ بِطَلَبِ مُقابَلَتِنا في المَساءِ . وَكانَ الرَّجُلُ يُدْعى جون كلايتون .

قالَ هولْمز : «وَالآنَ يا كلايتون ، أَخْبِرْني بِكُلِّ ما تَعْرِفُ عَنْ ذٰلِكَ الرّاكِبِ الَّذي اَسْتَأْجَرَ عَرَبَتَكَ لِيُراقِبَ هٰذا المَنْزِلَ في السّاعَةِ العاشِرَةِ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ ، ثُمَّ سارَ بِها بَعْدَ ذٰلِكَ في شارِعِ ريجنت إِثْرَ اَثْنَيْنِ مِنَ السّادَةِ .»

أَجابَ كلايتون : «حَسَنًا ، يا سَيِّدي . قالَ لي الرَّجُلُ إِنَّهُ مُخْبِرٌ سِرِّيٌّ ، وَرَجاني أَلّا أُطْلِعَ أَحَدًا عَلى اَسْمِهِ .»

«وَما اَسْمُهُ ؟»

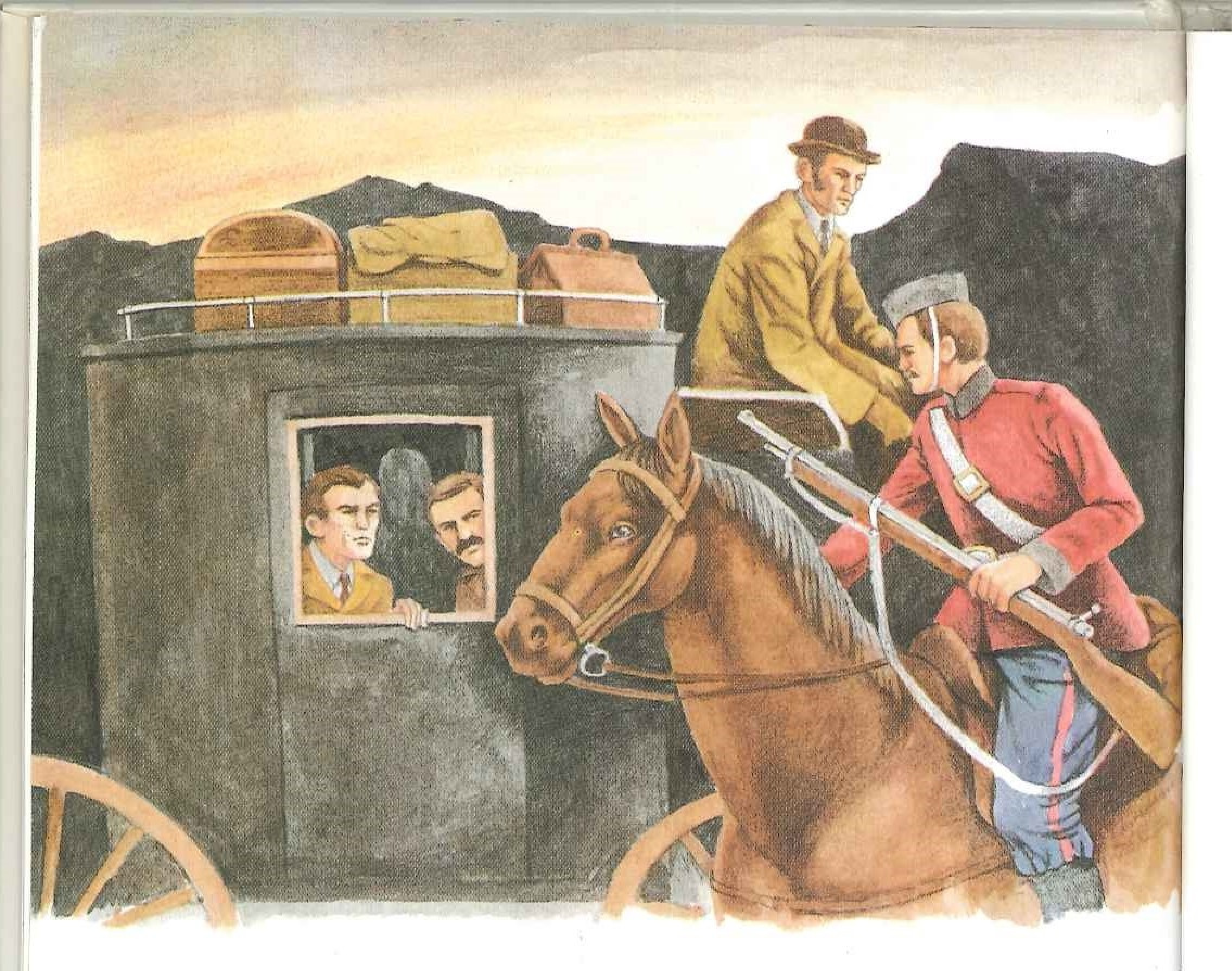
«قالَ إِنَّهُ : شِرلوك هولْمز .»

وَلِبُرْهَةٍ وَجيزَةٍ ظَلَّ هولْمز في ذُهولٍ صامِتٍ ؛ وَلَمْ يَلْبَثْ أَنِ اَنْفَجَرَ ضاحِكًا وَهُوَ يُعَلِّقُ بِقَوْلِهِ : «إِنَّهُ اَخْتِيارٌ بارِعٌ ، يا واطْسُن ! يَجِبُ أَنْ نَعْتَرِفَ بِذٰلِكَ .»

وَلَمّا سَأَلَ هولمز كلايتون أَنْ يَصِفَ الرّاكِبَ ، قالَ الأَخيرُ إِنَّهُ رَجُلٌ مُتَوَسِّطُ الطّولِ ، حَسَنُ الهِنْدامِ ، ذو وَجْهٍ شاحِبٍ تَحُفُّ بِهِ لِحْيَةٌ مُرَبَّعَةٌ سَوْداءُ .

وَاَنْتَهَتْ أَقْوالُ كلايتون عِنْدَ هٰذا الحَدِّ ، فَسَمَحَ لَهُ هولْمز بِالاَنْصِرافِ بَعْدَ أَنْ نَفَحَهُ نِصْفَ جُنَيْهٍ واعِدًا إِيّاهُ بِنِصْفٍ آخَرَ إِذا ما أَمَدَّهُ بِمَعْلوماتٍ أَكْثَرَ .

قالَ لي هولْمز حينَئِذٍ : «يَبْدو أَنَّنا قَدْ وَصَلْنا في لندن إلى جِدارٍ مُصْمَتٍ عَقيمٍ . رُبَّما تَجِدُ الحالَ أَفْضَلَ في ديفونشاير ، غَيْرَ أَنَّني قَلِقٌ مِنْ إِرْسالِكَ في هٰذِهِ المُهِمَّةِ الخَطِرَةِ ، يا واطْسُن . إِنَّها مُهِمَّةٌ كَئيبَةٌ مَحْفوفَةٌ بِالمَكارِهِ ، وَلَسَوْفَ أَتَنَفَّسُ الصُّعَداءَ حينَ تَعودُ سَليمًا



مُعافًى إلى شارِعِ بيكر .»

وَرافَقَني هولْمز إلى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الحَديدِيَّةِ ، وَأَعْطاني بَعْضَ التَّوْجيهاتِ الخِتامِيَّةِ : يَجِبُ أَنْ أَحْمِلَ مُسَدَّسي في جَميعِ الأَوْقاتِ ، وَأَلّا أَدَعَ سير هنري يَغيبُ عَنْ ناظِرَيَّ ، كَما يَجِبُ أَنْ أَتَأَكَّدَ مِنْ عَدَمِ خُروجِهِ بِمُفْرَدِهِ مِنَ القَصْرِ .

كانَ سير هَنْري يَتَطَلَّعُ بِشَغَفٍ إلى رُؤْيَةِ ضَيْعَتِهِ لِلْمَرَّةِ الأُولى . وَحَمَلَتْنا إِحْدى العَرَباتِ مِنَ المَحَطَّةِ إلى القَصْرِ عَبْرَ حُقولٍ شاسِعَةٍ تُحيطُ بِنا مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، إلى أَنْ أَتَيْنا إلى المُنْحَنى الطَّويلِ الكَئيبِ الَّذي يُؤَدّي إلى المُسْتَنْقَعاتِ ، وَالَّذي تَتَخَلَّلُهُ إلى الخَلْفِ سِلْسِلَةٌ مِنَ التِّلالِ البَعيدَةِ . وَعِنْدَ نُتوءٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الأَرْضِ رَأَيْنا فَجْأَةً جُنْدِيًّا يَحْمِلُ بُنْدُقِيَّةً مُمْتَطِيًا صَهْوَةَ جَوادِهِ . وَلَمّا عَلَتِ الدَّهْشَةُ وُجوهَنا لِمَرْآهُ في ذٰلِكَ المَكانِ ، فَسَّرَ لَنا سائِقُ العَرَبَةِ سَبَبَ وُجودِهِ قائِلًا إِنَّ مُجْرِمًا خَطِرًا اَسْمُهُ «سيلدن» هَرَبَ مِنْ سِجْنِ برنستون قَبْلَ ثَلاثَةِ

أيّام ، وإنَّ الحُرّاسَ يَجولونَ في المِنْطَقَةِ بَحْثًا عَنْهُ ، ويُراقِبونَ جميعَ الطُّرُقِ والمَحَطّاتِ .

وَصَعِدْنا هٰذا المُرْتَفِعَ النّاتِئَ إلى أنْ بلَغْنا قِمَّتَهُ ، ثُمَّ أخَذْنا في الهُبوطِ إلى الجُزْءِ المُوحِشِ مِنْ أرضِ المُسْتَنْقَعاتِ . وبَعيدًا إلى أسْفَلُ ، رَأَيْنا قَصْرَ باسْكَرْفيل لِلْمَرَّةِ الأولى . وَبَدا لنا أحَدُ جَوانِبِهِ كالِحًا مُحَطَّمًا ، وَلٰكِنَّ الجُزْءَ الَّذي جَدَّدَهُ تشارلز بَدا جَميلًا جِدًّا في الواقِعِ . وَكانَ القَصْرُ مُحاطًا بِأَشْجارِ البَلّوطِ وَالتَّنوبِ القَميئَةِ الَّتي تَوَقَّفَتْ عَنِ النُّمُوِّ ، وَشَكَّلَتْ طَريقًا كَئيبًا يَسْلُكُهُ المارُّ مِنَ المَنْزِلِ حَتّى البابِ الأمامِيِّ لِلْقَصْرِ .

كانَ باريمور وَزَوْجَتُهُ في ٱسْتِقْبالِنا . وَلَمْ يَلْبَثِ الدّكتور مورْتيمر أنْ تَرَكَنا وعادَ إلى بَيْتِهِ ، ثُمَّ وَجَدْنا أنْفُسَنا فَجْأَةً داخِلَ قاعَةٍ فَسيحَةٍ شامِخَةٍ جُدْرانُها مُغَطّاةٌ بِقِشْرَةِ خَشَبِ البَلّوطِ ، وَتُزَيِّنُها صُوَرٌ زَيْتِيَّةٌ لِأَفْرادِ العائِلَةِ ، وَشِعاراتُ نَبالَةٍ مُخْتَلِفَةُ الأشْكالِ ، وَرُؤوسُ أيائِلَ مُقْتَنَصَةٍ ، وَما إلى ذٰلِكَ مِمّا يُزَيِّنُ قُصورَ النُّبَلاءِ . وَكانَتْ كُلُّ هٰذِهِ الأشْياءِ تُثيرُ في نُفوسِنا مَشاعِرَ قاتِمَةً كَئيبَةً ، بِالرَّغْمِ مِنْ وَهَجِ النّيرانِ المُتَأَجِّجَةِ في المِدْفَأَةِ وَالَّذي يوحي بِالدِّفْءِ وَالحَياةِ . وَكانَتْ غُرْفَةُ الطَّعامِ أشَدَّ قَتامَةً ، عُلِّقَتْ على جُدْرانِها صُوَرٌ زَيْتِيَّةٌ أُخْرى ، وَتَنْتَهي في أحَدِ أطْرافِها بِمِنَصَّةٍ كَبيرَةٍ لِلْموسيقى وَالغِناءِ ، وَلٰكِنَّ غُرْفَةَ البلياردو الحَديثَةَ ، الَّتي تَوَجَّهْنا إلَيْها بَعْدَ العَشاءِ ، أشاعَتْ فينا شَيْئًا مِنَ البَهْجَةِ وَالمَرَحِ .

وَقَبْلَ أنْ نَأْوِيَ لَيْلًا إلى الفِراشِ ، نَظَرْتُ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَةِ النَّوْمِ ، وَأَخَذْتُ في تَأَمُّلِ مُحيطِ القَصْرِ . كانَ القَمَرُ يُرْسِلُ ضَوْءَهُ مِنْ خِلالِ السُّحُبِ المُتَراكِضَةِ ، وَكانَتِ الأشْجارُ تَهْتَزُّ مَعَ ٱنْطِلاقِ الرّيحِ . وَلاحَ لِعَيْنَيَّ في الأُفُقِ البَعيدِ ذٰلِكَ المُنْحَنى الخَفيضُ الَّذي يُؤَدّي إلى أرْضِ المُسْتَنْقَعاتِ المَشْؤومَةِ ... ثُمَّ سَمِعْتُ ، عَلى حينِ غِرَّةٍ ، صَوْتًا غَريبًا أشْبَهَ بِنَشيجِ ٱمْرَأَةٍ ... كانَ نَشيجًا مُخْتَنِقًا مَكْتومًا ! وَجَلَسْتُ في فِراشي أُنْصِتُ ، غَيْرَ أنَّني لَمْ أسْمَعْ سِوى رَنينِ جَرَسِ السّاعَةِ الكَبيرَةِ المُعَلَّقَةِ عَلى أحَدِ جُدْرانِ القاعَةِ .

وَفي الصَّباحِ التّالي ، سَأَلْتُ باريمور عَنِ الصَّوْتِ الَّذي سَمِعْتُهُ ، وَلٰكِنَّهُ أجابَ - في تَأْكيدٍ - لا بُدَّ أنَّني قَدْ أخْطَأْتُ السَّمْعَ ، فَمِنَ المُسْتَحيلِ أنْ يَكونَ الصَّوْتُ هُوَ صَوْتُ زَوْجَتِهِ مَثَلًا - وَهِيَ المَرْأَةُ الوَحيدَةُ في القَصْرِ . على أنَّني سُرْعانَ ما تَبَيَّنْتُ كَذِبَهُ ، إذِ ٱلْتَقَيْتُ بِالسَّيِّدَةِ باريمور في أحَدِ الدَّهاليزِ الَّتي بَيْنَ الحُجُراتِ ، فَوَجَدْتُ عَيْنَيْها حَمْراوَيْنِ ، وَجَفْنَيْها مُتَوَرِّمَيْنِ . وَعَجِبْتُ لِماذا يُخْفي باريمور الحَقيقَةَ ، وَهَلْ يُمْكِنُ أنْ يَكونَ هُوَ الرَّجُلَ المُلْتَحِيَ الَّذي رَأَيْناهُ في لندن؟ وَثارَتْ شُكوكي إلى أبْعَدِ مِنْ ذٰلِكَ حينَ سِرْتُ عَبْرَ المُسْتَنْقَعاتِ إلى مَكْتَبِ بَريدِ جرمبن حَيْثُ ٱكْتَشَفْتُ - عِنْدَ ٱسْتِفْساري - أنَّ الفَتى السّاعِيَ لَمْ يُسَلِّمْ بَرْقِيَّةَ سير هنري إلى باريمور شَخْصِيًّا - كَما كُنّا نَظُنُّ - لِأَنَّ السَّيِّدَةَ باريمور ٱعْتَذَرَتْ حينَئِذٍ بِأَنَّ زَوْجَها مَشْغولٌ في الدَّوْرِ العُلْوِيِّ مِنَ القَصْرِ .

وَعِنْدَما واصَلْتُ السَّيْرَ عَبْرَ المُسْتَنْقَعاتِ ، سَمِعْتُ وَقْعَ أقْدامٍ خَلْفي ، ثُمَّ صَوْتًا يُحَيّيني



بِاسْمي. وَالْتَفَتُّ مُتَوَقِّعًا أَنْ أَرى الدكتور مورتيمر، غَيْرَ أَنَّني رَأَيْتُ رَجُلًا غَريبًا... كانَ شابًّا في العَقْدِ الرّابِعِ مِنْ عُمْرِهِ، صَغيرَ الجِسْمِ، حَليقَ الذَّقْنِ، ذا شَعْرٍ كَتّانِيٍّ وَفَكٍّ مائِلٍ، يَرْتَدي سُتْرَةً رَمادِيَّةً وَقُبَّعَةً مِنَ القَشِّ. وَكانَ يُعَلِّقُ عَلى كَتِفِهِ صُنْدوقًا مِنَ الصَّفيحِ يَحْوي عَيِّناتٍ نَباتِيَّةً، كَما كانَ يَحْمِلُ في إِحْدى يَدَيْهِ شَبَكَةً خَضْراءَ لِالْتِقاطِ الفَراشاتِ.

قالَ القادِمُ الجَديدُ: «أَنْتَ الدكتور واطْسُن، عَلى ما أَظُنُّ. أَنا ستيبلتون مِنْ بَيْتِ ميريبِت. كَيْفَ حالُ سير هَنْري؟»

أَجَبْتُهُ قائِلًا: «إِنَّهُ عَلى ما يُرام. أَشْكُرُكَ.»

أَرْدَفَ ستيبلتون: «يُدْهِشُني أَنْ يَخْتارَ الرَّجُلُ أَنْ يَعيشَ هُنا بَعْدَ أَنْ سَمِعَ عَنِ الأَحْداثِ المُرْعِبَةِ الأَخيرَةِ.. مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ لا يُؤْمِنُ بِالخُرافاتِ.»

«أَظُنُّ ذٰلِكَ.»

«لَقَدْ سَمِعْتَ، وَلا شَكَّ، قِصَّةَ الشَّبَحِ؟»

أَجَبْتُ، وَأَنا في حَيْرَةٍ مِمّا يَرْمي إِلَيْهِ: «أَجَلْ، سَمِعْتُ.»

وَواصَلَ عالِمُ الحَشَراتِ كَلامَهُ قائِلًا: «إِنَّ أَهْلَ المِنْطَقَةِ يُؤْمِنونَ تَمامًا بِصِدْقِ هٰذِهِ الرِّوايَةِ، وَهُمْ يَقولونَ إِنَّهُمْ رَأَوْا رَأْيَ العَيْنِ ذٰلِكَ المَخْلوقَ المُتَوَحِّشَ الَّذي يَمْرَحُ فَوْقَ

ثَرى المُسْتَنْقَعِ، كَما يُرَجِّحونَ أَنَّ سير تشارلز قَدْ شاهَدَ شَيْئًا ما أَرْعَبَهُ في طَريقِ «يو» في اللَّيْلَةِ الأَخيرَةِ مِنْ حَياتِهِ... كانَ مَعْروفًا أَنَّهُ مَريضٌ بِالقَلْبِ.»

بادَرْتُهُ بِالسُّؤالِ: «هَلْ كُنْتَ عَلى دِرايَةٍ بِمَرَضِهِ ذاكَ؟»

«أَجَلْ، فَلَقَدْ أَشارَ صَديقي الدكتور مورتيمر ذاتَ مَرَّةٍ إِلى هٰذا المَرَضِ. وَإِنّي أَعْتَقِدُ شَخْصِيًّا أَنَّ سير تشارلز ماتَ مِنَ الرُّعْبِ. ما رَأْيُ السَّيِّدِ شرلوك هولْمز في ذٰلِكَ؟»

وَعاقَتْني دَهْشَةٌ شَديدَةٌ عَنِ الإِجابَةِ، وَاسْتَأْنَفَ ستيبلتون حَديثَهُ قائِلًا: «نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ وُجودَكَ هُنا، يا دكتور واطْسُن، هُوَ أَبْلَغُ دَليلٍ عَلى أَنَّ السَّيِّدَ هولْمز مُهْتَمٌّ بِالأَمْرِ... هَلْ سَيَحْضُرُ إِلَيْنا بِنَفْسِهِ؟»

«لَيْسَ في الوَقْتِ الحاضِرِ عَلى الأَقَلِّ، فَلَدَيْهِ عَمَلٌ في لندن يُريدُ أَنْ يَفْرُغَ مِنْهُ.»

وَهُنا أَفْصَحَ ستيبلتون عَنْ رَغْبَتِهِ قائِلًا: «إِذا كُنْتَ تَقومُ بِبَعْضِ التَّحَرِّياتِ، فَقَدْ أَسْتَطيعُ مُساعَدَتَكَ عَلى نَحْوٍ ما.»

أَجَبْتُهُ في نَبْرَةٍ جافَّةٍ بَعْضَ الشَّيْءِ: «أُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّ هٰذِهِ مُجَرَّدُ زِيارَةٍ وُدِّيَّةٍ لِسير هنري، وَأَنَّني في غِنًى عَنْ أَيَّةِ مُساعَدَةٍ.»

وَاسْتَأْنَفْنا السَّيْرَ عَلى الطَّريقِ نَحْوَ بَيْتِ ميريبِت حَيْثُ يَقْطُنُ ستيبلتون مَعَ أُخْتِهِ. وَأَرْدَفَ الرَّجُلُ قائِلًا: «أَرْضُ المُسْتَنْقَعاتِ هِيَ مَكانٌ مُخيفٌ حَقًّا، وَمَحْفوفٌ بِالمَخاطِرِ كَذٰلِكَ؛ فَهُناكَ في غَوْرِها العَميقِ توجَدُ حَمْأَةُ جرمْبن الشّاسِعَةُ العَريضَةُ؛ تِلْكَ الحَمْأَةُ الغادِرَةُ الَّتي تَبْتَلِعُ في أَوْحالِها جَوادًا شارِدًا ضَخْمًا كُلَّ أُسْبوعَيْنِ أَوْ ثَلاثَةِ أَسابيعَ! أَفْرادٌ قَلائِلُ لِلْغايَةِ هُمُ الَّذينَ يَعْرِفونَ الطَّريقَ الوَحيدَ الآمِنَ لِلْخُروجِ مِنْ هٰذِهِ الحَمْأَةِ، غَيْرَ أَنّي أَعْرِفُ هٰذا الطَّريقَ حَقَّ المَعْرِفَةِ، وَأَسْتَخْدِمُهُ بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ خِلالَ تَعَقُّبي لِلْفَراشاتِ، أَوْ خِلالَ بَحْثي عَنْ نَباتاتِ المُسْتَنْقَعِ الشَّديدَةِ النُّدْرَةِ.»

وَسَمِعْنا – عَلى حينِ غِرَّةٍ – صَوْتًا غَريبًا أَشْبَهَ بِعُواءِ كَلْبٍ أَوْ نُواحِ امْرَأَةٍ. وَسَأَلْتُ في شَيْءٍ مِنَ القَلَقِ: «ما هٰذا؟»

أَجابَ الرَّجُلُ: «يَزْعُمُ الفَلّاحونَ عَنْ ثِقَةٍ تامَّةٍ أَنَّهُ شَبَحُ باسْكرْفيل.»

«مِنَ العَبَثِ أَنْ يُصَدِّقَ المَرْءُ مِثْلَ هٰذا الهُراءِ.» قُلْتُها وَقُشَعْرِيرَةُ الخَوْفِ قَدْ أَخَذَتْ تَتَسَلَّلُ إلى قَلْبي، غَيْرَ أَنَّني لَمْ أَلْبَثْ أَنْ رَكَنْتُ إلى حُكْمِ العَقْلِ وَالتَّفْكيرِ السَّليمِ.

وَواصَلَ ستيبلتون حَديثَهُ قائِلًا: «حَسَنٌ، إنَّ أَشْياءَ خارِقَةً لِلطَّبيعَةِ كَثيرًا ما تَحْدُثُ هُنا في المُسْتَنْقَعاتِ، مِثْلَ صَرَخاتٍ غَريبَةٍ تُنْذِرُ بِالشُّؤْمِ. إنَّ المَكانَ شاذٌّ وَعَجيبٌ. ماذا تَعْني مَثَلًا تِلْكَ الدَّوائِرُ الحَجَرِيَّةُ عَلى جانِبِ التَّلِّ؟»

أَجَبْتُهُ: «لَعَلَّها حَظائِرُ لِلْخِرافِ.»

قالَ: «كَلّا. إنَّها أَطْلالُ كُهوفٍ كانَ يَأْوي إلَيْها الإنْسانُ القَديمُ، إنَّها آثارٌ حَزينَةٌ تُعيدُ إلى أَذْهانِنا ذِكْرى كِفاحِ الإنْسانِ الأَوَّلِ مِنْ أَجْلِ البَقاءِ.»

وَاسْتَأْذَنَ في الانْصِرافِ، ثُمَّ انْطَلَقَ – حامِلًا شَبَكَتَهُ – في إثْرِ فَراشَةٍ مُلَوَّنَةٍ. وَرَأَيْتُهُ يَخْتَفي عَنْ بَصَري بَيْنَ الشُّجَيْراتِ الخَفيضَةِ.

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامٍ تَقْتَرِبُ، وَدُهِشْتُ لِرُؤْيَةِ امْرَأَةٍ شابَّةٍ تَسيرُ نَحْوي. وَرَجَّحْتُ أَنْ تَكونَ المَرْأَةُ أُخْتَ ستيبلتون الَّتي أَتى ذِكْرُها أَمامي مِنْ قَبْلُ... كانَتْ فارِعَةَ الطّولِ، نَحيلَةَ القَدِّ، سَمْراءَ اللَّوْنِ، شَديدَةَ الجاذِبِيَّةِ. وَنَظَرَتْ مُباشَرَةً في عَيْنَيَّ، ثُمَّ قالَتْ بِسُرْعَةٍ وَاقْتِضابٍ: «عُدْ!.. عُدْ إلى لندن في الحالِ.»

سَأَلْتُها عَلى الفَوْرِ: «لِأَيِّ سَبَبٍ أَعودُ؟ لَقَدْ قَدِمْتُ مُنْذُ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ.»

«عُدْ وَلا تَسَلْ عَنِ السَّبَبِ؛ فَلَيْسَ لَدَيَّ وَقْتٌ لِلإبانَةِ وَالتَّفْصيلِ.»

صاحَ ستيبلتون عِنْدَما عادَ: «إذَنْ فَقَدْ تَعَرَّفَ كُلٌّ مِنْكُما بِالآخَرِ!.. هٰذِهِ أُخْتي.» وَبادَرَتِ السَّيِّدَةُ بِالقَوْلِ: «كُنْتُ أَتَحَدَّثُ مَعَ سير هَنْري عَنِ المُسْتَنْقَعاتِ.»

قاطَعْتُها في الحالِ: «كَلّا، لَسْتُ سير هَنْري، وَلٰكِنِّي صَديقٌ لَهُ.. اسْمي واطْسُن.»

قالَتِ السَّيِّدَةُ: «لَقَدْ حَدَثَ لُبْسٌ. هَلّا تَفَضَّلْتَ إلى الدّاخِلِ!»

كانَ بَيْتُ ميريبيتْ أَحَدَ المَنازِلِ المُنْعَزِلَةِ في مِنْطَقَةِ المُسْتَنْقَعاتِ. وَكانَ في الأَصْلِ مَزْرَعَةً يانِعَةً، وَلٰكِنَّها حُوِّلَتْ إلى بَيْتٍ ريفِيٍّ.

قالَ ستيبلتون عِنْدَ دُخولِنا: «إنَّها لَبُقْعَةٌ غَريبَةٌ لِلسُّكْنى، أَلَيْسَ كَذٰلِكَ؟ غَيْرَ أَنَّها أَهْدَأُ كَثيرًا مِنْ مَدْرَسَتي في يوركشاير.. كَما أَنَّ المِنْطَقَةَ تُهِمُّني كَعالِمِ حَشَراتٍ. لَقَدْ حاقَ بِالمَدْرَسَةِ وَباءٌ مَشْئومٌ انْتَهى بِمَوْتِ ثَلاثَةِ تَلاميذَ، فَاضْطُرِرْتُ إلى إغْلاقِها.»

وَبَيْنَما نَحْنُ نَتَبادَلُ الحَديثَ، انْتابَني شُعورٌ بِالذَّنْبِ لِتَرْكي سير هنري بِمُفْرَدِهِ طَوالَ هٰذا الوَقْتِ، فَاسْتَأْذَنْتُ في الانْصِرافِ وَقَفَلْتُ راجِعًا إلى القَصْرِ عَبْرَ المُسْتَنْقَعاتِ.

وَلَمْ أَكَدْ أَمْشي نِصْفَ ميلٍ حَتّى فوجِئْتُ بِالآنِسَةِ ستيبلتون تَسيرُ أَمامي. قالَتْ: «أَرْجوكَ أَنْ تَنْسى ما قُلْتُهُ عَنْكَ... كُنْتُ أَعْني سير هَنْري بِتِلْكَ الكَلِماتِ.. هُناكَ خَطَرٌ يَتَهَدَّدُ حَياتَهُ في هٰذا المَكانِ.. أَرْجوكَ دَعْهُ يَرْحَلُ في الحالِ.»

«وَلٰكِنْ تُرى ما الخَطَرُ الَّذي يَتَهَدَّدُهُ؟»

«أَنْتَ تَعْرِفُ قِصَّةَ الشَّبَحِ بِالتَّأْكيدِ؟»

أَجَبْتُها بِحِدَّةٍ: «أَنا لا أُومِنُ بِمِثْلِ هٰذا الهُراءِ.»

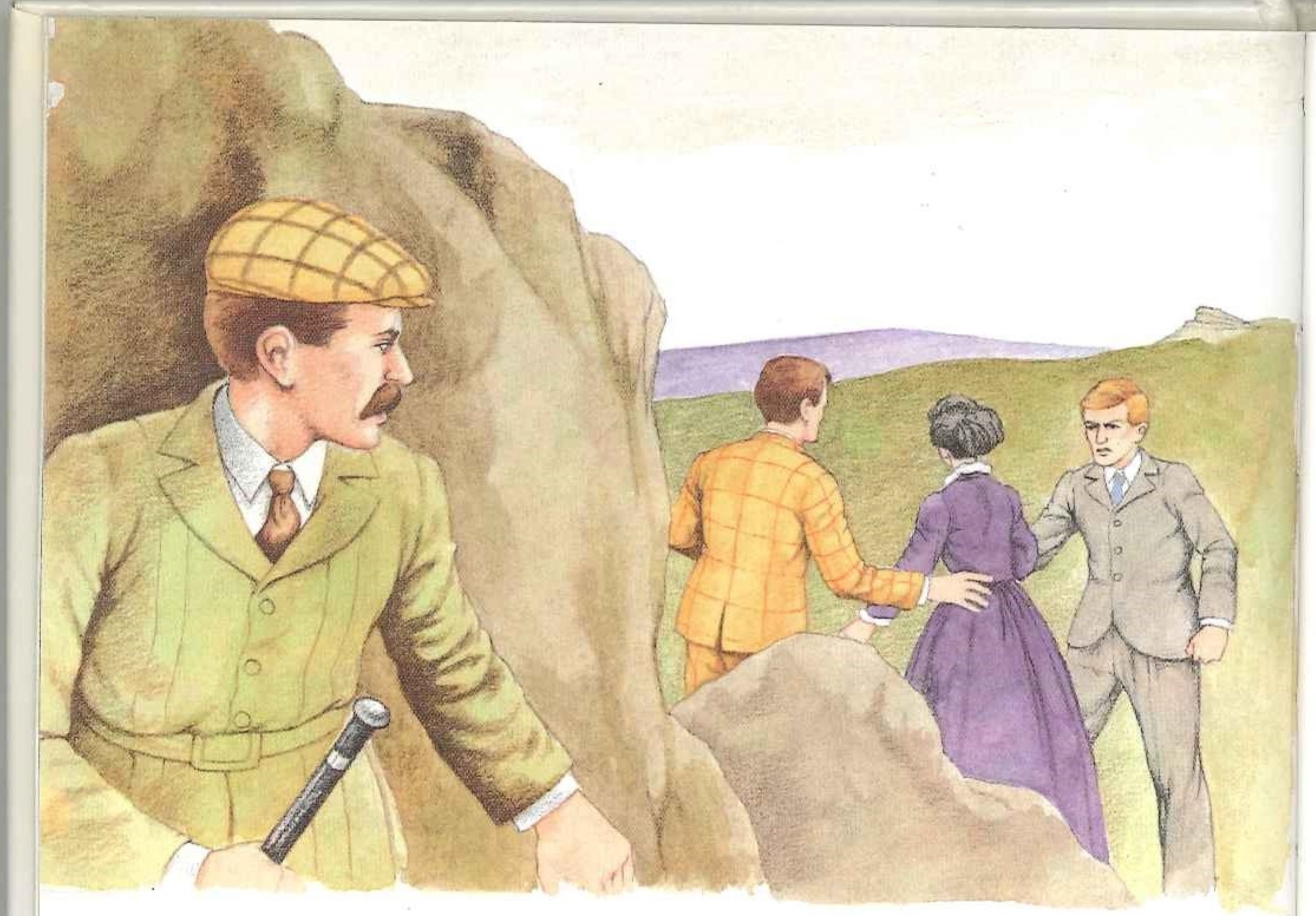
قالَتْ في إصْرارٍ: «وَلٰكِنِّي أُومِنُ بِالقِصَّةِ فِعْلًا. إنَّ حَياةَ هَنْري مُعَرَّضَةٌ لِلْخَطَرِ طالَما بَقِيَ هُنا. يَجِبُ أَنْ أَعودَ أَدْراجي الآنَ حَتّى لا يَشُكَّ أَخي في شَيْءٍ.»

واصَلْتُ السَّيْرَ إلى قَصْرِ باسْكَرْفيل، وَعَقْلي مَشْحونٌ بِمَخاوِفَ غامِضَةٍ. وَبِناءً عَلى تَعْليماتِ هولمز شَرَعْتُ في إرْسالِ خِطاباتٍ يَوْمِيَّةٍ إلى عُنْوانِهِ في لندن، تَحْوي كُلَّ ما رَأَيْتُ أَوْ سَمِعْتُ بِالتَّفْصيلِ.

اِعْتَدْنا أَنْ نَلْتَقِيَ – أَنا وَسير هَنْري – بِالسَّيِّدِ ستيبلتون وَأُخْتِهِ في بَيْتِ ميريبت بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ، وَكُنّا نَتَناوَلُ طَعامَ الغَداءِ مَعَهُما أَحْيانًا. وَلاحَظْتُ أَنَّ الرَّجُلَ يَتَمَيَّزُ بِخُشونَةٍ في الطَّبْعِ، وَأَنَّهُ يَجْنَحُ في مُعامَلَةِ أُخْتِهِ إِلى القَسْوَةِ وَالاسْتِبْدادِ. كانَتْ أُخْتُهُ بارِعَةَ الجَمالِ بِلا جِدالٍ غَيْرَ أَنَّ لَوْنَها كانَ أَشَدَّ سُمْرَةً مِنْ أَيَّةِ امْرَأَةٍ إِنْجليزِيَّةٍ في العادَةِ، كَما بَدا مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ سير هَنْري قَدْ مالَ بِشِدَّةٍ إِلَيْها. وَلَمْ يَخْفَ هٰذا المَيْلُ عَلى ذَكاءِ السَّيِّدِ ستيبلتون في الواقِعِ، وَلٰكِنَّهُ قابَلَ الأَمْرَ بِجَفاءٍ واضِحٍ.

وَقابَلْتُ كَذٰلِكَ السَّيِّدَ فرانكلاند الَّذي يَقْطُنُ في قَصْرِ لافتر. كانَ رَجُلًا مُتَطَرِّفًا غَريبَ الأَطْوارِ، تُسَيْطِرُ عَلى ذِهْنِهِ فِكْرَةُ النِّضالِ لِصَوْنِ المَزايا وَالحُقوقِ القَديمَةِ لِمُلّاكِ العِزَبِ وَالمَزارِعِ، وَكانَ يَجِدُ مُتْعَةً خاصَّةً في الذَّهابِ إِلى المَحاكِمِ لِيُدافِعَ عَنِ الحُقوقِ الإِقْطاعِيَّةِ الغابِرَةِ لِهٰؤُلاءِ مِثْلِ حَقِّ مِلْكِيَّةِ الطُّرُقِ الجانِبِيَّةِ الصَّغيرَةِ، وَما شابَهَ ذٰلِكَ. وَمِنَ الطَّريفِ أَنَّهُ أَقامَ عَلى سَطْحِ مَسْكَنِهِ تليسكوبًا ضَخْمًا؛ عَسى أَنْ يَحْظى مِنْ خِلالِهِ بِرُؤْيَةٍ خاطِفَةٍ لِلْمُذْنِبِ الهارِبِ في أَرْضِ المُسْتَنْقَعاتِ.

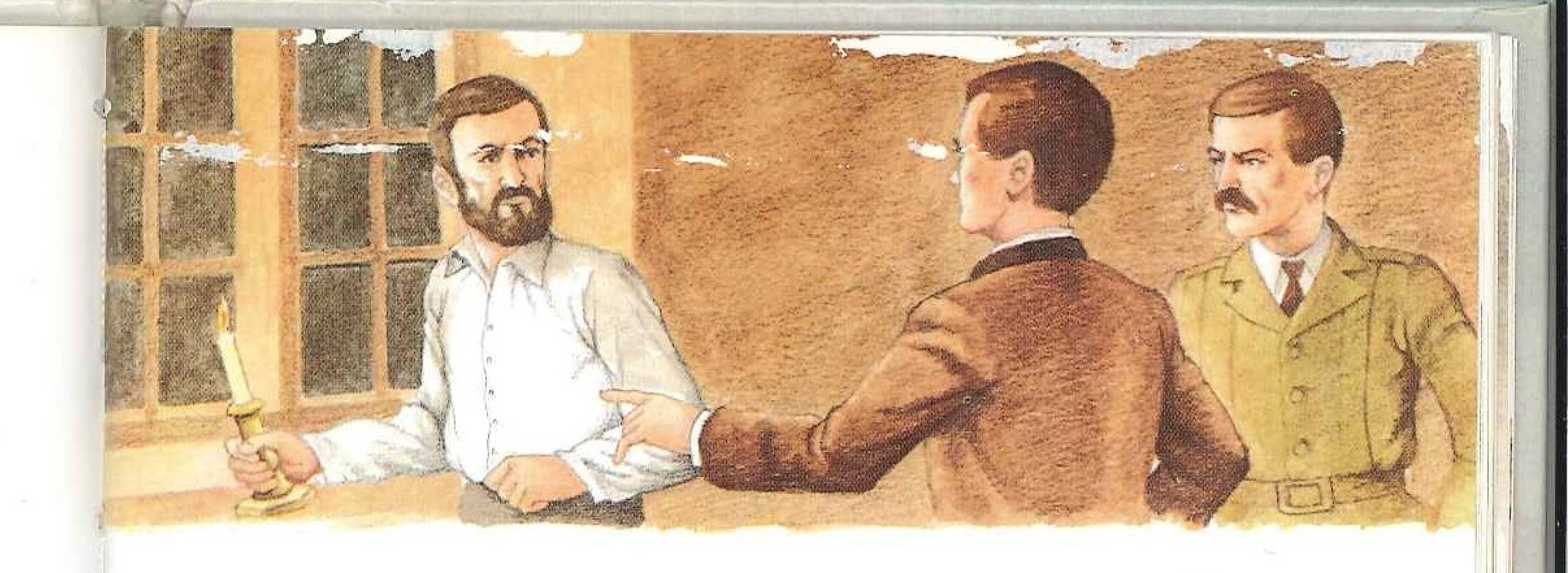
أَمّا هولْمز، فَقَدْ كانَ يَهُمُّهُ بِشَكْلٍ خاصٍّ أَنْ يَعْرِفَ سَيْرَ الأَحْداثِ في قَصْرِ باسْكَرْفيل بِالذّاتِ، وَلَقَدْ أَخَذْتُ أَبْعَثُ إِلَيْهِ بِتَقاريرَ مُفَصَّلَةٍ عَنْ تَطَوُّرِ هٰذِهِ الأَحْداثِ. وَلَقَدْ لاحَظْتُ – لِدَهْشَتي البالِغَةِ – أَنَّ السَّيِّدَةَ باريمور تُعاني قَلَقًا وَاكْتِئابًا شَديدَيْنِ، وَأَنَّ السَّيِّدَ باريمور يَأْتي بِتَصَرُّفاتٍ غَريبَةٍ. وَفي إِحْدى اللَّيالي سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامٍ خارِجَ بابِ حُجْرَتي، فَفَتَحْتُهُ بِسُرْعَةٍ وَحَدَّقْتُ في الدِّهْليزِ. كانَ هُناكَ رَجُلٌ، كَأَنَّهُ باريمور يَنْسَلُّ في المَمَرِّ، حامِلًا شَمْعَةً مُضاءَةً في يَدِهِ. وَما إِنِ اخْتَفى الرَّجُلُ في إِحْدى الغُرَفِ المُطِلَّةِ عَلى المُسْتَنْقَعاتِ، حَتّى تَتَبَّعْتُهُ سائِرًا عَلى أَطْرافِ أَصابِعِ قَدَمَيَّ، وَنَظَرْتُ مِنْ خِلالِ ثَقْبِ بابِ الغُرْفَةِ... كانَ الرَّجُلُ هُوَ باريمور.. اِقْتَرَبَ باريمور بِشَمْعَتِهِ مِنَ النّافِذَةِ، ثُمَّ حَدَّقَ في الخارِجِ. وَبَعْدَ بُرْهَةٍ قَصيرَةٍ أَطْفَأَ الشَّمْعَةَ، فَعُدْتُ مُسْرِعًا إِلى حُجْرَتي، وَقَدْ تَمَلَّكَني العَجَبُ وَالحَيْرَةُ مِنْ سُلوكِهِ المُريبِ.



في الصَّباحِ التّالي، نَقَلْتُ هٰذِهِ الأَخْبارَ إِلى سير هَنْري، فَعَزَمْنا عَلى مُراقَبَةِ المَوْقِفِ مَعًا لِبِضْعِ لَيالٍ مُتَتالِيَةٍ. ثُمَّ أَفْصَحَ لي الرَّجُلُ عَنْ رَغْبَتِهِ في الخُروجِ مُنْفَرِدًا لِيَلْتَقِيَ بِالآنِسَةِ ستيبلتون، فَلَمْ أَشَأْ أَنْ أُمانِعَ في تَحْقيقِ هٰذِهِ الرَّغْبَةِ الجامِحَةِ. غَيْرَ أَنَّني عَوَّلْتُ عَلى مُراقَبَتِهِ عَنْ بُعْدٍ، فَصَعِدْتُ لِذٰلِكَ تَلًّا صَغيرًا كَشَفَ لي أَرْضَ المُسْتَنْقَعِ بِوُضوحٍ.

وَرَأَيْتُ سير هَنْري يَلْتَقي بِالشّابَّةِ الجَميلَةِ وَيَنْدَمِجُ مَعَها في حَديثٍ عاطِفِيٍّ صَميمٍ. بَيْدَ أَنَّ ستيبلتون سَرْعانَ ما فاجَأَهُما، فَأَرْغى وَأَزْبَدَ، وَتَعالَتْ صَيْحاتُهُ وَهُوَ يَدُقُّ بِقَدَمِهِ الأَرْضَ. وَما هِيَ إِلّا لَحَظاتٌ حَتّى عادَ بِأُخْتِهِ إِلى المَنْزِلِ.

وَفي اليَوْمِ التّالي زارَ ستيبلتون سير هَنْري في قَصْرِهِ، وَاعْتَذَرَ عَمّا حَدَثَ في اليَوْمِ السّابِقِ، زاعِمًا أَنَّهُ لَمْ يُطِقْ فِكْرَةَ فِراقِ أُخْتِهِ بِسَبَبِ الزَّواجِ، كَما رَجاهُ أَنْ يُؤَجِّلَ طَلَبَ الاقْتِرانِ بِها لِمُدَّةِ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ. وَهٰكَذا الْتَأَمَ الصَّدْعُ مُؤَقَّتًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ.



وَلَمّا أَوْغَلَ اللَّيْلُ، أَخَذْنا نُراقِبُ باريمور. كانَ الرَّجُلُ يُكَرِّرُ ما حَدَثَ مِنْ قَبْلُ في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ. وَسَرْعانَ ما اقْتَحَمْنا عَلَيْهِ الحُجْرَةَ. سَأَلَهُ سير هَنْري «ما الَّذي تَفْعَلُهُ هُنا؟» فَأَجابَ، وَقَدْ رَوَّعَتْهُ المُفاجَأَةُ: «لا شَيْءَ، يا سَيِّدي، إِنَّني أَتَفَقَّدُ النّافِذَةَ.»

أَرْدَفَ سير هَنْري في اسْتِنْكار: «ماذا؟ تَتَفَقَّدُ نافِذَةً بِذاتِها في الدَّوْرِ الثّاني مِنَ القَصْرِ، وَفي السّاعَةِ الثّانِيَةِ صَباحًا، كُلَّ لَيْلَةٍ؟ هٰذا ما لا يُصَدِّقُهُ عَقْلٌ. أَخْبِرْني بِالحَقيقَةِ.»

«لا أَسْتَطيعُ البَوْحَ بِالحَقيقَةِ يا سَيِّدي، فَأَنا لا أَمْلِكُ إِفْشاءَ هٰذا السِّرِّ.»

وَراوَدَتْني فِكْرَةٌ مُفاجِئَةٌ، فَتَناوَلْتُ الشَّمْعَةَ وَقَرَّبْتُها مِنَ النّافِذَةِ. وَفي لَحْظَةٍ خاطِفَةٍ ظَهَرَ مِنْ بَعيدٍ ضَوْءٌ ضَئيلٌ لِلْغايَةِ فَصِحْتُ قائِلًا: «هٰذا هُوَ مِفْتاحُ السِّرِّ! إِنَّها إِشارَةٌ ضَوْئِيَّةٌ لا رَيْبَ. وَالآنَ أَخْبِرْني، يا باريمور: مَنْ هُوَ شَريكُكَ الَّذي يَقِفُ هُناكَ؟»

وَبَيْنَما هُوَ يُغَمْغِمُ مُحاوِلًا تَفْسيرَ الأَمْرِ، دَلَفَتِ السَّيِّدَةُ باريمور إِلى الحُجْرَةِ، وَقَدْ بَدا عَلَيْها الكَرْبُ الشَّديدُ. وَلِدَهْشَتِنا البالِغَةِ، أَخْبَرَتْنا أَنَّ شَريكَهُ هُوَ سيلدن: المُذْنِبُ الفارُّ مِنْ وَجْهِ العَدالَةِ، وَأَنَّ «سيلدن» هُوَ أَخوها الأَصْغَرُ الَّذي تَعَهَّدَتْهُ مُنْذُ أَنْ كانَ طِفْلًا، وَلَمْ يُطاوِعْها قَلْبُها عَلى تَسْليمِهِ لِرِجالِ الأَمْنِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مَبْلَغَ الشَّبابِ، فَخَبَّأَتْهُ داخِلَ القَصْرِ إِلى أَنْ قَدِمَ هَنْري إِلَيْهِ، فَاضْطُرَّ الرَّجُلُ المَنْكودُ إِلى أَنْ يَهيمَ فَوْقَ أَرْضِ المُسْتَنْقَعاتِ، مُلْتَمِسًا مَأْواهُ بَيْنَ أَطْلالِ الكُهوفِ القَديمَةِ، وَمُعْتَمِدًا في قُوتِهِ عَلى لَفائِفِ الطَّعامِ الَّتي يُلْقي بِها إِلَيْهِ باريمور وَزَوْجَتُهُ كُلَّ يَوْمَيْنِ. ثُمَّ أَضافَتْ أَنَّ تِلْكَ الإِشاراتِ الضَّوْئِيَّةَ قَدِ اتُّفِقَ عَلَيْها لِيَعْرِفا أَنَّ «سيلدن» ما زالَ عَلى قَيْدِ الحَياةِ.

وَأَذِنَ سير هَنْري لِباريمور وَزَوْجَتِهِ بِالانْصِرافِ إِلى حُجْرَتِهِما، وَأَخَذْنا نَتَدارَسُ مَعًا اتِّجاهَ الضَّوْءِ الَّذي رَأَيْناهُ. قالَ سير هَنْري: «إِنَّ الضَّوْءَ يَبْعُدُ ميلًا أَوْ ميلَيْنِ فَقَطْ. إِنَّهُ يَنْبَعِثُ مِنْ عِنْدِ غَوْرِ تُرْ، عَلى ما أَعْتَقِدُ. يَجِبُ أَنْ نَقْبِضَ عَلى الرَّجُلِ في الحالِ.»

وَأَخَذْتُ مُسَدَّسي، كَما حَمَلَ سير هَنْري سَوْطًا مِنْ سِياطِ الصَّيْدِ. وَما إِنْ سِرْنا مَسافَةً قَصيرَةً حَتّى تَرامى إِلى آذانِنا صَوْتٌ سَمِعْتُهُ مِنْ قَبْلُ: عَويلٌ أَشْبَهُ بِنُباحٍ يُنْبِئُ بِقَدَرٍ مَشْئومٍ. وَتَرَدَّدَ الصَّوْتُ المَرَّةَ تِلْوَ المَرَّةِ، صَوْتٌ وَحْشِيٌّ يُهَدِّدُ بِشَرٍّ مُسْتَطيرٍ.

قالَ سير هَنْري في هَمْسٍ تَسودُهُ الدَّهْشَةُ وَالتَّوَتُّرُ: «ما هٰذا الشَّيْءُ؟»

أَجَبْتُهُ: «لَسْتُ أَدْري.» وَاسْتَمَرَّ رَفيقي يَهْمِسُ بِصَوْتٍ مُهْتَزٍّ: «أُرَجِّحُ، يا واطْسُن، أَنَّهُ عُواءُ كَلْبٍ. ماذا يَقولُ سُكّانُ المِنْطَقَةِ عَنْ هٰذا الصَّوْتِ؟»

تَرَدَّدْتُ بُرْهَةً في الإِجابَةِ، ثُمَّ قُلْتُ: «يَقولونَ إِنَّهُ عُواءُ شَبَحِ باسْكَرْڤيل.»

وَصَمَتَ سير هَنْري لَحْظَةً، ثُمَّ قالَ: «كانَ الصَّوْتُ صادِرًا مِنْ ناحِيَةِ مُسْتَنْقَعِ جرِمْبِن... إِنَّهُ صَوْتٌ مُزْعِجٌ وَمَشْئومٌ حَقًّا، مِنَ العَسيرِ عَلى المَرْءِ أَنْ يَنْساهُ.»

وَسَأَلْتُهُ ما إِذا كانَ مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ نَعودَ، فَأَجابَني سير هَنْري قائِلًا: «كَلّا، يَجِبُ أَلّا نَدَعَ «سيلدن» يُفْلِتُ مِنْ أَيْدينا.»

وَتَقَدَّمْنا، وَنَحْنُ نَتَعَثَّرُ عَلى الطَّريقِ، إِلى أَنْ أَتَيْنا إِلى مَوْضِعٍ وَجَدْنا فيهِ شَمْعَةً مُثَبَّتَةً في شَقٍّ بَيْنَ الصُّخورِ... وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ فوجِئْنا بِوَجْهٍ مُلْتَحٍ يَتَلَصَّصُ النَّظَرَ إِلَيْنا مِنْ بَيْنِ الأَجَمَةِ. وَما إِنْ لَمَحْناهُ حَتّى سارَعَ بِالاخْتِفاءِ تَحْتَ جَناحٍ مِنْ ظُلْمَةِ المُسْتَنْقَعِ... كانَ مِنَ العَبَثِ أَنْ نَسْتَمِرَّ في تَعَقُّبِهِ؛ لِأَنَّ طَريدَنا يَعْرِفُ طُرُقَ المُسْتَنْقَعِ جَيِّدًا، فَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ تَوَقَّفْنا عَنِ الجَرْيِ، وَجَلَسْنا نَلْهَثُ عَلى صَخْرَتَيْنِ مُتَجاوِرَتَيْنِ.

وَعِنْدَما قَفَلْنا عائِدَيْنِ إِلى المَنْزِلِ، رَأَيْتُ فَجْأَةً شَبَحَ رَجُلٍ طَويلٍ نَحيلٍ، يَقِفُ عَلى قِمَّةِ هَضْبَةٍ بِذِراعَيْنِ مَطْوِيَّتَيْنِ. وَما إِنْ تَوَقَّفْنا عَنِ السَّيْرِ حَتّى اخْتَفى خَلْفَ التَّلِّ. لَمْ يَكُنْ - بِالتَّأْكيدِ - هُوَ المُجْرِمُ الهارِبُ، وَرُبَّما كانَ حارِسًا مِنْ حُرّاسِ السِّجْنِ. وَاسْتَأْنَفْنا السَّيْرَ نَحْوَ القَصْرِ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْنا الحَيْرَةُ مِنْ جَرّاءِ هٰذِهِ الأَحْداثِ الغامِضَةِ.

وَعِنْدَما دَلَفْتُ إلى غُرْفَةِ المَكْتَبِ في الصَّباحِ التّالي ، وَجَدْتُ باريمور يَشْكو إلى سير هَنْري : «لَقَدْ قُمْتُما اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ بِاَسْتِغْلالِ السِّرِّ ، وَمُطارَدَةِ أَخيها سيلدن .»

أَجابَ سير هَنْري بِحِدَّةٍ قائِلًا : «وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ مُجْرِمٌ يُهَدِّدُ المُجْتَمَعَ بِأَسْرِهِ .» قالَ باريمور : «إِنَّهُ لَنْ يُؤْذِيَ أَحَدًا . كُلُّ ما يُريدُهُ هُوَ أَنْ يُغادِرَ البِلادَ . وَإِذا أَخْطَرْتُما رِجالَ الأَمْنِ ، فَلَسَوْفَ نَقَعُ – أَنا وَزَوْجَتي – تَحْتَ طائِلَةِ القانونِ لِإِيوائِنا مُذْنِبًا .»

وَأَجابَ سير هَنْري : «لَنْ أُفْضِيَ لِلشُّرْطَةِ بِشَيْءٍ شَريطَةَ أَنْ يُغادِرَ سيلدن البِلادَ عَلى الفَوْرِ .» فَشَكَرَهُ باريمور بِحَرارَةٍ ، ثُمَّ فاجَأَنا بِقَوْلِهِ : «أَظُنُّ أَنَّ مِنْ واجِبي أَنْ أُخْبِرَكَ بِشَيْءٍ اَكْتَشَفْتُهُ عَنْ وَفاةِ سير تشارلز .»

سَأَلَهُ سير هَنْري في الحالِ : «هَلْ تَعْرِفُ ، عَلى وَجْهِ الدِّقَّةِ ، كَيْفَ ماتَ ؟»

«كَلّا ، وَلٰكِنّي أَعْرِفُ لِماذا تَوَقَّفَ عِنْدَ البَوّابَةِ : كانَ يُريدُ لِقاءَ اَمْرَأَةٍ .»

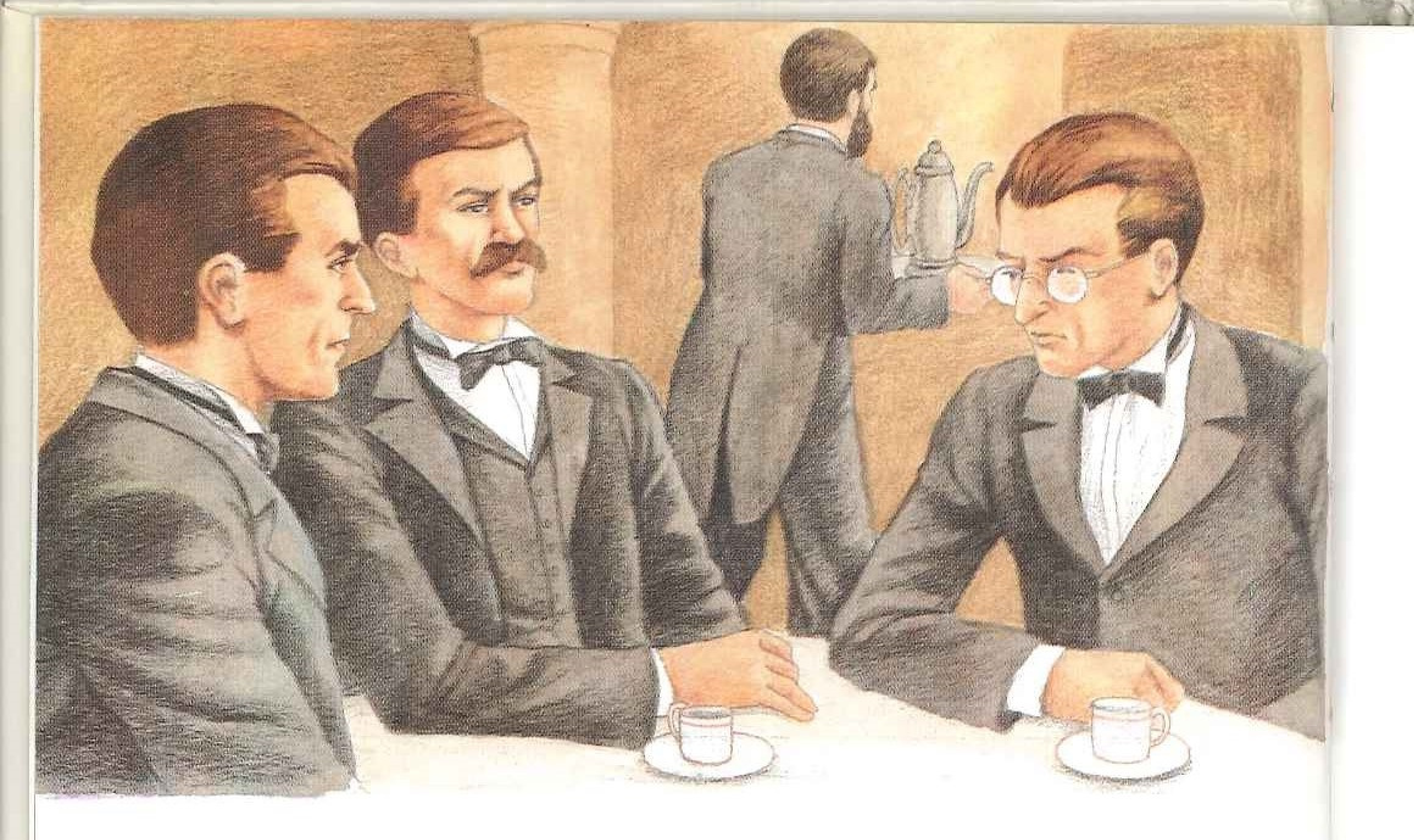
«اِمْرَأَةٍ ؟! وَما اَسْمُ هٰذِهِ المَرْأَةِ ؟»

أَجابَ باريمور : «لا أَدْري ، غَيْرَ أَنَّ الحَرْفَيْنِ الأَوَّلَيْنِ مِنِ اَسْمِها هُما : ل . ل . لَقَدْ تَلَقّى سير تشارلز صَبيحَةَ اليَوْمِ الأَخيرِ في حَياتِهِ خِطابًا واحِدًا فَقَطْ . وَكانَ مُعْتادًا أَنْ يَتَلَقّى أَكْثَرَ مِنْ خِطابٍ كُلَّ يَوْمٍ . وَلاحَظْتُ أَنَّ خاتَمَ البَريدِ يَدُلُّ عَلى أَنَّ الخِطابَ مِنْ بَلْدَةِ «كومب تريسي» ، وَأَنَّ العُنْوانَ مَكْتوبٌ بِخَطٍّ أُنْثَوِيٍّ . وَبَعْدَ أَيّامٍ قَلائِلَ ، كُنْتُ أُساعِدُ زَوْجَتي في إِفْراغِ مِدْفَأَةِ حُجْرَةِ المَكْتَبِ مِنَ الأَوْراقِ المُهْمَلَةِ الَّتي أُلْقِيَتْ فيها فَرَأَيْتُ بَقايا خِطابٍ مُحْتَرِقٍ . كانَ مُعْظَمُ الخِطابِ قَدْ تَحَوَّلَ إِلى رَمادٍ ، وَلٰكِنَّنا اَسْتَطَعْنا أَنْ نَقْرَأَ العِبارَةَ التّالِيَةَ عَلى طَرَفِهِ : أَحْرِقْ هٰذِهِ الرِّسالَةَ بَعْدَ قِراءَتِها ، وَقابِلْني عِنْدَ البَوّابَةِ في السّاعَةِ العاشِرَةِ – ل . ل .»

سَأَلَ سير هنري بِاَهْتِمامٍ : «أَلا تَزالُ تَحْتَفِظُ بِهٰذِهِ الوَرَقَةِ ؟»

«كَلّا ، يا سَيِّدي ، فَلَمّا حاوَلْنا اَلْتِقاطَها مِنَ المِدْفَأَةِ تَحَوَّلَتْ إِلى أَشْلاءٍ .»

«وَلِماذا لَمْ تُخْبِرْ أَحَدًا بِذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ ؟»



«لِأَنَّ هٰذا الخَبَرَ لا يَخْدُمُ قَضِيَّةَ سير تشارلز ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهُ قَدْ يُسيءُ إِلى سُمْعَتِهِ .»

وَفي ذٰلِكَ المَساءِ ، قَدِمَ إِلَيْنا الدّكتور مورْتيمَر لِتَناوُلِ العَشاءِ . وَأَجابَ عَنْ تَساؤُلاتِنا ، فَقالَ إِنَّ السَّيِّدَةَ «ل . ل .» قَدْ تَكونُ لورا ليونز الَّتي تَعيشُ في «كومب تريسي» .

وَأَضافَ الطَّبيبُ قائِلًا : «إِنَّها اَبْنَةُ السَّيِّدِ فرانكلاند ، وَقَدْ تَزَوَّجَتْ دونَ مُوافَقَةِ أَبيها فَتَبَرَّأَ مِنْها . وَكانَ زَوْجُها فَنّانًا يُدْعى «ليونز» ، غَيْرَ أَنَّهُ هَجَرَها بَعْدَ سَنَواتٍ قَليلَةٍ .»

وَبادَرْتُهُ بِالسُّؤالِ : «مِنْ أَيْنَ تُنْفِقُ عَلى نَفْسِها إِذَنْ ؟»

أَجابَ : «مِنْ مَبْلَغٍ ضَئيلٍ مِنَ النُّقودِ تَتَقاضاهُ مِنْ والِدِها ، وَقَدِ اَسْتَطَعْتُ ، بِالاَشْتِراكِ مَعَ السَّيِّدِ ستيبلتون وَسير تشارلز ، تَزْويدَها بِرَأْسِمالٍ كافٍ لِإِقامَةِ مَشْروعٍ صَغيرٍ لِلْكِتابَةِ عَلى الآلَةِ الكاتِبَةِ .»

كانَتْ تِلْكَ المَعْلوماتُ مُثيرَةً لِلاَهْتِمامِ ، وَلٰكِنَّني أَدَرْتُ الحَديثَ وُجْهَةً أُخْرى ، إِذْ شَعَرْتُ بِأَنَّهُ مِنَ الأَفْضَلِ أَلّا أُفْضِيَ لِلدّكتور مورْتيمَر بِشَيْءٍ عَنِ الخِطابِ المَحْروقِ . عَلى أَنَّني عَوَّلْتُ عَلى أَنْ أَبْحَثَ بِنَفْسي عَنِ السَّيِّدَةِ لورا ليونز في «كومب تريسي» .

وَفي اليَوْمِ التّالي شَدَدْتُ الرِّحالَ إلى «كومب تريسي» وَأنا أَشْعُرُ بِالقَلَقِ لِتَرْكي سير هَنْري بِمُفْرَدِهِ، وَلٰكِنَّني كُنْتُ واثِقًا مِنْ أَنَّني سَوْفَ أَحْصُلُ مِنَ السَّيِّدَةِ عَلى مَعْلوماتٍ أَكْثَرَ إذا ما ذَهَبْتُ إلَيْها مُنْفَرِدًا. وَسَرْعانَ ما اهْتَدَيْتُ لِمَنْزِلِها.

كانَتْ سَمْراءَ أَنيقَةً، تَتَمَتَّعُ بِقَدْرٍ كَبيرٍ مِنَ الثِّقَةِ بِالنَّفْسِ، مَشوبًا بِشَيْءٍ مِنَ التَّعالي وَالجَفاءِ. وَقَدَّمْتُ نَفْسي إلَيْها عَلى أَنَّني صَديقٌ لِأَبيها. وَهُنا انْبَرَتْ قائِلَةً: «لَسْتُ مَدينَةً لِوالِدي في شَيْءٍ، فَلَوْلا سير تشارلز باسكرڤيل وَبَعْضُ أَصْدِقائِهِ لَهَلَكْتُ جوعًا.»

سارَعْتُ بِالقَوْلِ: «لَقَدْ جِئْتُكِ لِلْحَديثِ في شَأْنٍ يَخُصُّ سير تشارلز بِالذّاتِ... لَعَلَّكِ تَعْرِفينَهُ جَيِّدًا.»

«أَجَلْ.. كانَ كَريمًا جِدًّا مَعي.. وَلٰكِنْ لِماذا تُوَجِّهُ إلَيَّ مِثْلَ هٰذِهِ الأَسْئِلَةِ؟»

قُلْتُ، مُحاوِلًا الاقْتِرابَ مِنَ الهَدَفِ: «ثَمَّةَ فَضيحَةٌ أُريدُ تَجْنيبَكِ إيّاها، وَذٰلِكَ بِالحَيْلولَةِ دونَ أَنْ يَسْتَجْوِبَكِ رِجالُ الشُّرْطَةِ... هٰذا كُلُّ ما في الأَمْرِ.»

بَدَتْ عَلى السَّيِّدَةِ أَماراتُ الانْزِعاجِ، لٰكِنَّها لَمْ تَلْبَثْ أَنْ هَدَأَتْ، ثُمَّ قالَتْ: «كُنْتُ أَكْتُبُ لِسير تشارلز بَيْنَ فَيْنَةٍ وَأُخْرى، وَلَقَدْ أَتى لِزِيارَتي بِضْعَ مَرّاتٍ.»

سَأَلْتُها في اهْتِمامٍ: «وَهَلْ كَتَبْتِ لَهُ، ذاتَ يَوْمٍ، تَطْلُبينَ لِقاءَهُ؟»

هَبَّتْ صائِحَةً في غَضَبٍ: «لَمْ يَحْدُثْ شَيْءٌ مِنْ هٰذا القَبيلِ.»

«بَلْ حَدَثَ بِالفِعْلِ. لَقَدْ كَتَبْتِ لَهُ خِطابًا تَقولينَ فيهِ: «أَحْرِقْ هٰذِهِ الرِّسالَةَ بَعْدَ قِراءَتِها، وَقابِلْني عِنْدَ البَوّابَةِ في السّاعَةِ العاشِرَةِ.»»

قالَتْ لاهِثَةً: «أَلَمْ يُحْرِقْ هٰذا الخِطابَ؟»

«أَحْرَقَهُ فِعْلًا، وَلٰكِنْ بَقِيَ جُزْءٌ مِنْهُ... أَتَعْتَرِفينَ بِكِتابَةِ هٰذِهِ الرِّسالَةِ؟»

«لَقَدْ كُنْتُ في حاجَةٍ إلى مُساعَدَتِهِ مَرَّةً أُخْرى، وَكانَ مِنَ الضَّروريِّ أَنْ أَلْقاهُ.»

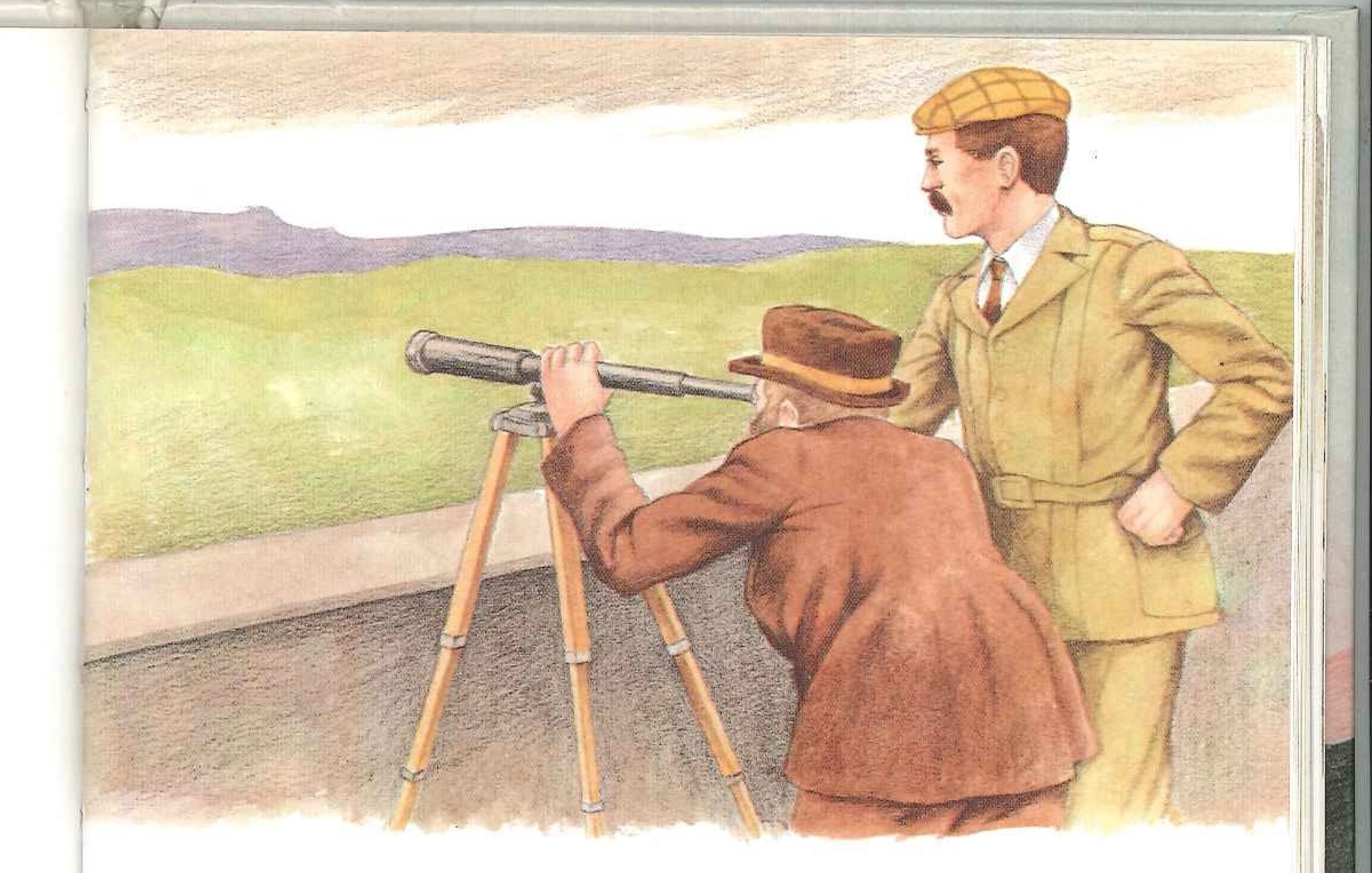
«وَلٰكِنْ لِماذا تَخَيَّرْتِ هٰذِهِ السّاعَةَ المُتَأَخِّرَةَ وَهٰذا المَكانَ الغَريبَ لِلُقْياهُ؟»

أَجابَتْ: «لِأَنَّني كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ لِلتَّوِّ أَنَّهُ سَوْفَ يَذْهَبُ إلى لندن في اليَوْمِ التّالي، وَيَظَلُّ هُناكَ بِضْعَةَ شُهورٍ. لَمْ يَكُنْ يُمْكِنُني، بِالطَّبْعِ، أَنْ أَذْهَبَ إلى مَنْزِلِهِ في تِلْكَ السّاعَةِ المُتَأَخِّرَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَدْ كانَ الرَّجُلُ عَزَبًا، وَكانَ هٰذا السُّلوكُ مِنْ جانِبي كَفيلًا بِإثارَةِ الأَقاويلِ.»

«ماذا حَدَثَ عِنْدَ وُصولِكِ إلى البَوّابَةِ؟»

«لَمْ أَذْهَبْ إلى هُناكَ عَلى الإِطْلاقِ... كُنْتُ أُريدُ، أَساسًا، أَنْ أَقْتَرِضَ مِنْ سير تشارلز مَبْلَغًا مِنَ المالِ لِسَدادِ الرُّسومِ المَطْلوبَةِ لِتَنْفيذِ إجْراءاتِ طَلاقي مِنْ زَوْجي السّابِقِ. وَلٰكِنْ حَدَثَ في ذٰلِكَ اليَوْمِ، أَنْ أَقْرَضَني هٰذا المَبْلَغَ صَديقٌ آخَرُ، وَهٰكَذا أَصْبَحَ مِنْ غَيْرِ الضَّروريِّ أَنْ أَذْهَبَ لِلِقاءِ سير تشارلز. وَكُنْتُ عَلى وَشْكِ أَنْ أَكْتُبَ لَهُ في اليَوْمِ التّالي لِشَرْحِ الأَمْرِ، غَيْرَ أَنَّني فوجِئْتُ بِنَبَإِ وَفاتِهِ المَأْساوِيِّ.»

بَدَتْ لي قِصَّتُها سَهْلَةَ التَّصْديقِ لَوْلا ما اعْتَرى السَّيِّدَةَ مِنْ خَوْفٍ شَديدٍ، دَلَّ عَلى أَنَّها تُخْفي شَيْئًا ما. عَلى أَنَّني شَكَرْتُها لِإِمْدادي بِتِلْكَ المَعْلوماتِ، قَبْلَ أَنْ أُوَدِّعَها مُتَطَلِّعًا إلى لِقاءٍ آخَرَ. وَلَقَدْ عَزَمْتُ عَلى تَفَحُّصِ الكُهوفِ القَديمَةِ المُطِلَّةِ عَلى المُسْتَنْقَعِ، خِلالَ عَوْدَتي إلى القَصْرِ، بَيْدَ أَنَّني فوجِئْتُ بِمُقابَلَةِ السَّيِّدِ فرانكلاند عَلى الطَّريقِ.



صافَحَني الرَّجُلُ قائِلًا: «طابَ مَساؤُكَ، يا دكتور واطْسُن. هَلّا عُدْتَ مَعي إلى البَيْتِ لِتَناوُلِ قَدَحٍ مِنَ الشَّرابِ؟» فَقَبِلْتُ دَعْوَتَهُ في الحالِ، مُؤَمِّلًا أَنْ أَلْتَقِطَ مِنْهُ بَعْضَ المَعْلوماتِ المُفيدَةِ. وَكانَ السَّيِّدُ فرانكلاند شَديدَ الابْتِهاجِ في ذٰلِكَ اليَوْمِ لِأَنَّ المَحْكَمَةَ قَدْ قَضَتْ لِصالِحِهِ في إِحْدى القَضايا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ رِجالَ الشُّرْطَةِ – الَّذينَ يُكِنُّ لَهُمُ الرَّجُلُ كُلَّ ازْدِراءٍ – قَدْ وَضَعوا كَثيرًا مِنَ العَراقيلِ في طَريقِهِ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قالَ لي:

«لَوْ أَنَّ هٰؤُلاءِ الحَمْقى كانوا أَكْثَرَ تَعاوُنًا مَعي، لَساعَدْتُهُمْ في القَبْضِ عَلى سيلدن، فَأَنا أَعْرِفُ أَيْنَ يَخْتَبِئُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الفَتى الَّذي يَجْلِبُ لَهُ الطَّعامَ.»

كانَ هٰذا هُوَ ما أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الَّذي ظَنَّهُ السَّيِّدُ فرانكلاند «سيلدن» لَمْ يَكُنْ – في واقِعِ الأَمْرِ – سِوى ذٰلِكَ الشَّخْصِ الغَريبِ الطَّويلِ الَّذي رَأَيْتُ ظِلَّهُ مُتَرامِيًا فَوْقَ المُسْتَنْقَعِ. وَلَمْ يَلْبَثْ مُضيفي أَنِ اصْطَحَبَني إلى سَطْحِ المَنْزِلِ لِأَحْظى بِرُؤْيَةٍ أَفْضَلَ لِلْمُسْتَنْقَعِ مِنْ خِلالِ تليسكوبِهِ، مُشيرًا إلى الفَتى الَّذي كانَ يَصْعَدُ تَلًّا قَريبًا مِنَ «الهَضْبَةِ السَّوْداءِ». وَقَدْ شاهَدْتُهُ وَهُوَ يَصِلُ إلى أَعْلى التَّلِّ، ثُمَّ يَخْتَفي.

شَعَرْتُ حينَئِذٍ أَنَّ في حَوْزَتي بَعْضَ الأَدِلَّةِ الرّاسِخَةِ الَّتي تُعينُني عَلى اسْتِئْنافِ العَمَلِ، وَرَغِبْتُ في مُواصَلَةِ البَحْثِ وَالتَّحَرّي في تِلْكَ المِنْطَقَةِ الَّتي تُسَمّى بِالهَضْبَةِ السَّوْداءِ. وَعِنْدَما أَشْرَفْتُ عَلى قِمَّةِ التَّلِّ كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ مالَتْ إلى الغُروبِ، غَيْرَ أَنَّني اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى دائِرَةً مِنَ الكُهوفِ الحَجَرِيَّةِ القَديمَةِ، وَكانَ أَحَدُها لا يَزالُ مُحْتَفِظًا بِجُزْءٍ مِنْ سَقْفِهِ. وَراوَدَتْني حينَئِذٍ فِكْرَةُ أَنْ يَكونَ مَخْبَأُ الرَّجُلِ الغَريبِ هُناكَ.

وَهَبَطْتُ إلى البابِ شاهِرًا مُسَدَّسي، فَأَلْفَيْتُ الكوخَ خاوِيًا إلّا مِنْ بِضْعَةِ أَشْياءَ تَدُلُّ عَلى أَنَّ ساكِنًا قَدْ غادَرَهُ مُنْذُ وَقْتٍ قَريبٍ: بِضْعُ بَطّانِيّاتٍ، رَمادُ نيرانٍ خابِيَةٍ، دَلْوُ ماءٍ، عُلَبُ طَعامٍ فارِغَةٌ. وَرَأَيْتُ كيسًا يَحْوي خُبْزًا وَعُلْبَةَ سُجُقٍّ وَعُلْبَتَيْ خوخٍ، وَإلى جانِبِهِ رِسالَةٌ تَحْمِلُ هٰذِهِ الكَلِماتِ: «لَقَدْ ذَهَبَ د. واطْسُن إلى كومب تريسي».

كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّ الرَّجُلَ سَوْفَ يَعودُ، وَلِهٰذا وَقَفْتُ أَنْتَظِرُهُ، وَيَدي عَلى مُسَدَّسي. وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حَتّى سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ تَقْتَرِبُ، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ خارِجَ البابِ. وَناداني صَوْتٌ سَمِعْتُهُ مِرارًا مِنْ قَبْلُ: «إِنَّهُ مَساءٌ رائِعٌ يا واطْسُن.»

فَعَرَفْتُ الصَّوْتَ في الحالِ، وَقَفَزْتُ صائِحًا في فَرَحٍ: «هولمز! أَنْتَ هولمز!»

وَمَشَيْتُ بِبُطْءٍ إلى خارِجِ الكوخِ، وَقَدْ تَمَلَّكَتْني دَهْشَةٌ عارِمَةٌ. وَهُناكَ رَأَيْتُ صَديقي العَزيزَ يَرْتَدي حُلَّةً مِنَ الصّوفِ الخَشِنِ وَقُبَّعَةً مِنَ القُماشِ وَقَدِ اكْتَسَبَ لَوْنًا برونزِيًّا بِفِعْلِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ.

صِحْتُ في عَجَبٍ: «يا لَلسَّماءِ! لَمْ يُدْهِشْني شَيْءٌ كَهٰذا مِنْ قَبْلُ!» رَدَّ هولمز قائِلًا: «وَلا أَنا. لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ وُجودَكَ هُنا.»

سَأَلْتُهُ: «هَلْ لاحَظْتَ آثارَ قَدَمَيَّ، فَتَتَبَّعْتَها؟» فَأَجابَ: «كَلّا لَقَدْ لَمَحْتُ عَقِبَ إِحْدى سَجائِرِكَ عَلى الطَّريقِ، وَكانَ يَحْمِلُ عَلامَةَ المَتْجَرِ الَّذي تَشْتَري مِنْهُ لَفائِفَكَ. إِذَنْ فَقَدْ كُنْتَ تَتَعَقَّبُني هُنا ظانًّا أَنَّني المُجْرِمُ؟»

«لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ شَخْصِيَّةَ مَنْ أَتَعَقَّبُهُ بِالتَّحْديدِ، وَلٰكِنَّني كُنْتُ مُصَمِّمًا عَلى اكْتِشافِها. وَعَنْ طَريقِ مُراقَبَةِ تَحَرُّكاتِ الفَتى، اسْتَطَعْتُ أَنْ أَكْتَشِفَ هٰذا المَخْبَأَ.»

أَرْدَفَ هولْمز ضاحِكًا: «الغُلامُ... آهِ، نَعَمْ... تَقْصِدُ كارترايت.» ثُمَّ دَلَفَ إِلى الكوخِ، وَقَرَأَ الرِّسالَةَ الموجزَةَ، وَقالَ: «إِذَنْ فَقَدْ ذَهَبْتَ إِلى «كومب تريسي» لِرُؤْيَةِ السَّيِّدَةِ لورا ليونز الَّتي أَعْرِفُ الكَثيرَ عَنْها. ماذا ٱسْتَخْلَصْتَ مِنْها؟»

فَأَعَدْتُ عَلى مَسْمَعِهِ الحِوارَ الَّذي دارَ بَيْنَنا. فَقالَ: «إِنَّ ما دارَ بَيْنَكُما هُوَ مِنَ الأَهَمِّيَّةِ بِمَكانٍ. أَلا تَدْري أَنَّ هُناكَ عَلاقَةً حَميمَةً تَرْبِطُ بَيْنَ هٰذِهِ السَّيِّدَةِ وَالسَّيِّدِ ستيبلتون؟ وَهٰذا يُعْطينا سِلاحًا يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَخْدِمَهُ لِإِثارَةِ زَوْجَةِ ستيبلتون ضِدَّهُ.»

صِحْتُ في دَهْشَةٍ: «تَقولُ زَوْجَةُ ستيبلتون؟»

«أَجَلْ، يا واطْسُن، فَإِنَّ السَّيِّدَةَ الَّتي يَدَّعي أَنَّها أُخْتُهُ، إِنَّما هِيَ زَوْجَتُهُ في الواقِعِ.»

«عَجَبًا! أَواثِقٌ أَنْتَ مِمّا تَقولُ، يا هولْمز؟ إِنَّ سير هَنْري يُحِبُّها!»

أَرْدَفَ هولْمز: «هٰذا الحُبُّ لَنْ يُؤْذِيَ أَحَدًا سِوى سير هَنْري نَفْسِهِ. إِنَّ ستيبلتون يَسْتَخْدِمُ زَوْجَتَهُ كَطُعْمٍ وَإِغْراءٍ. وَلٰكِنَّهُ يَعْرِفُ جَيِّدًا كَيْفَ يَحْمِيها إِذا ما ٱسْتَدْعى الأَمْرُ.»

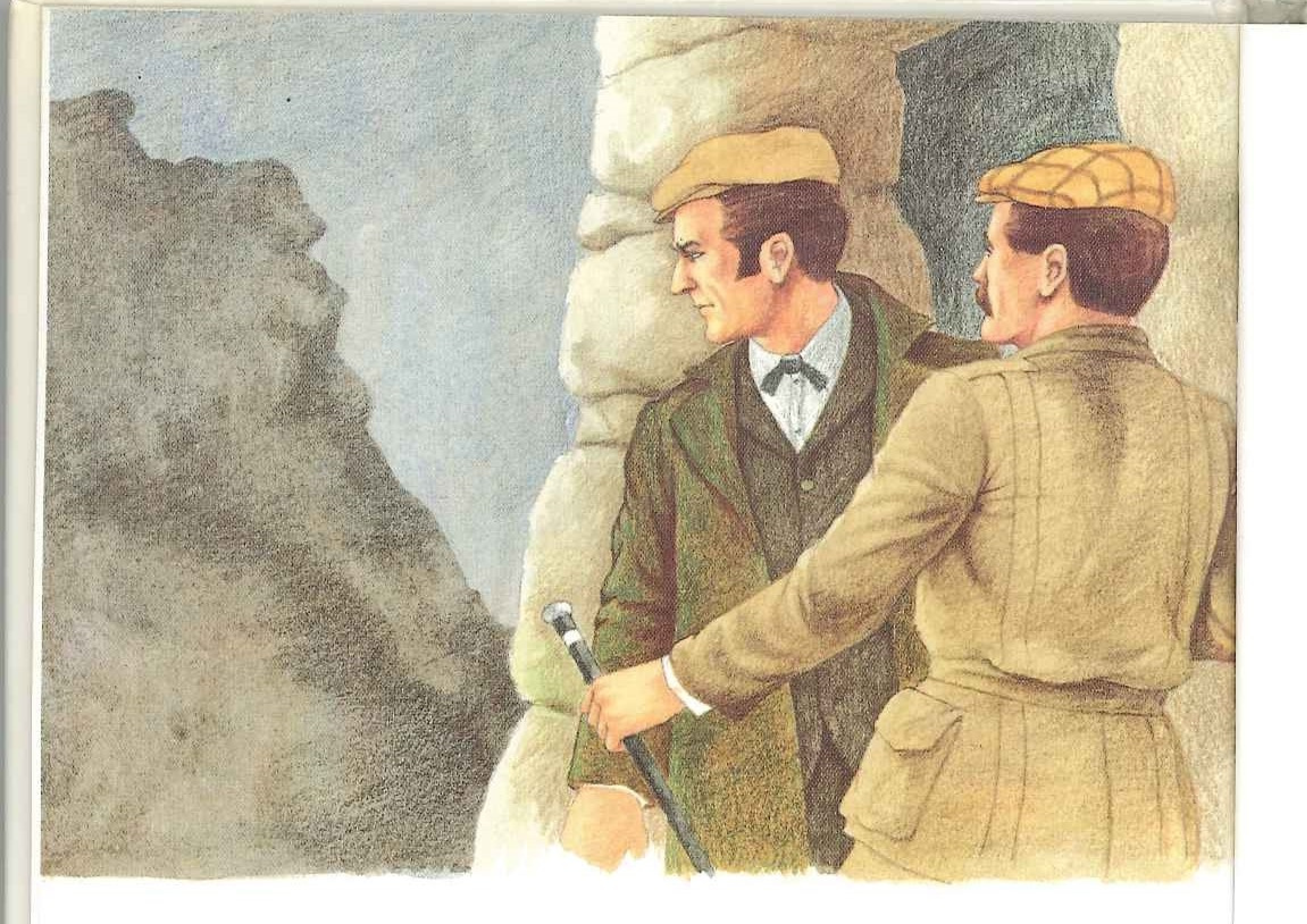
«وَكَيْفَ تَأَكَّدْتَ أَنَّها زَوْجَتُهُ؟»

«لِأَنَّهُ صَرَّحَ لَكَ ذاتَ يَوْمٍ أَنَّهُ كانَ يَمْتَلِكُ مَدْرَسَةً في يوركشاير وَٱضْطُرَّ إِلى إِغْلاقِها. وَلَمْ أَجِدْ صُعوبَةً في مَعْرِفَةِ مَكانِ تِلْكَ المَدْرَسَةِ، وَفي الحُصولِ عَلى أَوْصافٍ وَصُوَرٍ لِصاحِبِها وَزَوْجَتِهِ. وَلَقَدْ تَطابَقَتْ هٰذِهِ الصُّوَرُ وَالأَوْصافُ مَعَ شَخْصَيِ السَّيِّدِ ستيبلتون وَأُخْتِهِ المَزْعومَةِ... كانا يَعيشانِ حينَئِذٍ تَحْتَ ٱسْمِ: السَّيِّدِ ڤانديلير وَزَوْجَتِهِ.»

فَسَأَلْتُهُ: «وَما هُوَ الدَّوْرُ الَّذي تُريدُ لِلسَّيِّدَةِ لورا ليونز أَنْ تَلْعَبَهُ؟»

أَجابَ هولْمز: «أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّها تَسْعى لِلْحُصولِ عَلى الطَّلاقِ مِنْ زَوْجِها كَيْ تَتَمَكَّنَ مِنَ الزَّواجِ بِالسَّيِّدِ ستيبلتون الَّذي تَظُنُّهُ عَزَبًا. وَلٰكِنْ حينَ تَكْتَشِفُ أَنَّ الرَّجُلَ كانَ يَخْدَعُها، فَسَوْفَ تَقَعُ فَريسَةً لِحالَةٍ نَفْسِيَّةٍ سَيِّئَةٍ قَدْ تَدْفَعُها لِكَشْفِ بَعْضِ الأَسْرارِ الَّتي تَكْتَنِفُ قَضِيَّتَنا. وَإِنّي لَأَجْزِمُ أَنَّ السَّيِّدَةَ ستيبلتون سَوْفَ تَفْعَلُ بِالمِثْلِ.»

أَخَذَتْ كُلُّ شُكوكِنا وَأَدِلَّتِنا تَتَجَمَّعُ حَوْلَ ستيبلتون.



وَسَمِعْنا، عَلى حينِ غِرَّةٍ، صُراخًا مُريعًا، فَقَدِ ٱنْطَلَقَتْ مِنْ جَوْفِ المُسْتَنْقَعِ السّاكِنِ الصّامِتِ صَيْحَةٌ طَويلَةٌ مِنَ الرُّعْبِ وَالأَلَمِ المُبَرِّحِ جَمَّدَتِ الدَّمَ في عُروقي.

قُلْتُ في أَنْفاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ: «أوه، يا إِلٰهي! ما هٰذا؟ وَماذا يَعْني؟»

أَجابَ هولْمز هامِسًا: «أَصْمُتْ.. أَصْغِ جَيِّدًا... مِنْ أَيْنَ يَأْتي هٰذا الصَّوْتُ؟»

قُلْتُ مُشيرًا بِيَدي في الظَّلامِ: «مِنْ هٰذا الاتِّجاهِ عَلى ما أَظُنُّ.»

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَرامى إِلى آذانِنا صُراخٌ آخَرُ يَنُمُّ عَنْ أَلَمٍ وَكَرْبٍ شَديدَيْنِ، غَيْرَ أَنَّهُ ٱقْتَرَبَ مِنّا عَنْ ذي قَبْلُ، وَتَمَيَّزَ بِإيقاعٍ رَتيبٍ مُخيفٍ. وَما هِيَ إِلّا لَحْظَةٌ خاطِفَةٌ حَتّى صاحَ هولْمز قائِلًا: «الشَّبَحُ! أَسْرِعْ، يا واطْسُن، وَإِلّا أَفْلَتَتْ مِنّا الفُرْصَةُ!»

وَأَخَذْنا نَعْدو إِلى الأَمامِ، فَسَمِعْنا صَرْخَةً أَخيرَةً يائِسَةً، ثُمَّ صَوْتَ ٱرْتِطامٍ ثَقيلٍ بِالأَرْضِ.



وَواصَلْنا العَدْوَ في الظَّلامِ الدّامِسِ صَوْبَ تِلْكَ الصَّرْخَةِ، مُرْتَطِمينَ في طَريقِنا بِالصُّخورِ الصَّمّاءِ وَشُجَيْراتِ الجَوْلَقِ. وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ فوجِئْنا بِجُثَّةِ رَجُلٍ تَدَلّى وَجْهُهُ تَحْتَ جِسْمِهِ. كانَ قَدْ ماتَ – بِالفِعْلِ – وَكانَتِ الدِّماءُ تَتَدَفَّقُ غَزيرَةً مِنْ جُمْجُمَتِهِ المُهَشَّمَةِ. وَأَشْعَلْنا عودَ ثِقابٍ لِمَعْرِفَةِ صاحِبِ الجُثَّةِ، فَرَأَيْنا أَنَّها جُثَّةُ سير هَنْري باسْكَرْفيل؛ كانَ يَرْتَدي نَفْسَ السُّتْرَةِ الَّتي لَبِسَها حينَ قابَلْناهُ لِلْمَرَّةِ الأولى في شارِعِ بيكر.

وَأَصابَني رُعْبٌ وَذُهولٌ، وَشَعَرْتُ بِغُصَّةٍ في حَلْقي. لِماذا تَرَكْتُهُ وَحيدًا لِيَلْقى قَدَرَهُ المَشْئومَ؟ وَما لَبِثَ هولْمز أَنْ أَخْرَجَني مِنْ حُزْني بِقَوْلِهِ: «عَلى أَنَّنا ما زِلْنا نَفْتَقِرُ إِلى الدَّليلِ القاطِعِ عَلى أَنَّ ستيبلتون وَراءَ كُلِّ ما حَدَثَ؛ فَكُلُّ ما نَعْرِفُهُ ظاهِرِيًّا، حَتّى الآنَ، هُوَ أَنَّ سير تشارلز قَدْ ماتَ ذُعْرًا مِنَ الشَّبَحِ، وَأَنَّ سير هَنْري قَدْ لَقِيَ مَصْرَعَهُ مُنْذُ لَحَظاتٍ إِثْرَ سَقْطَةٍ عَنيفَةٍ عَلى رَأْسِهِ، بَيْنَما كانَ يَفِرُّ مُرْتاعًا مِنْ نَفْسِ الشَّبَحِ.

وَشَرَعْنا في نَقْلِ الجُثَّةِ إِلى سَطْحِ الكوخِ. وَما إِنِ انْحَنى هولْمز لِيَحْمِلَها، حَتّى صاحَ: «أُنْظُرْ، هٰذا الرَّجُلُ مُلْتَحٍ. إِنَّهُ لَيْسَ سير هَنْري. إِنَّهُ المُذْنِبُ الهارِبُ: سيلدن.»

أَدْرَكْتُ حينَئِذٍ ما حَدَثَ: لَقَدِ اشْتَرى سير هَنْري لِنَفْسِهِ مَلابِسَ جَديدَةً، وَأَعْطى القَديمَةَ لِباريمور، الَّذي قَدَّمَها بِدَوْرِهِ لِسيلدن لِتُعينَهُ عَلى التَّخَفّي وَالفِرارِ.

أَرْدَفَ هولْمز: «أَجَلْ، لَقَدْ تَسَبَّبَتِ المَلابِسُ في مَوْتِ الرَّجُلِ: فَقَدْ تَتَبَّعَ الشَّبَحُ رائِحَةَ حِذاءِ سير هَنْري. الآنَ عَرَفْتَ لِماذا سُرِقَ الحِذاءُ.»

وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِعَيْنِها، رَأَيْنا شَبَحَ رَجُلٍ يَقْتَرِبُ في الظَّلامِ، بِسيجارٍ مُشْتَعِلٍ في يَدِهِ... وَوَجَدْنا أَنَّ الرَّجُلَ هُوَ ستيبلتون، الَّذي لَمْ يَلْبَثْ أَنْ صاحَ قائِلًا:

«أَهٰذا أَنْتَ، يا دكتور واطْسُن؟ ماذا حَدَثَ؟ لَيْسَ سير هَنْري بِالتَّأْكيدِ.»

وَانْحَنى لِيَتَفَحَّصَ الجُثَّةَ، فَنَدَّتْ عَنْهُ شَهْقَةٌ فُجائِيَّةٌ. وَتَلَعْثَمَ وَهُوَ يَسْأَلُني مُتَجاهِلًا وُجودَ هولْمز وَرائي: «مَنْ صاحِبُ هٰذِهِ الجُثَّةِ؟»

أَجَبْتُ في هُدوءٍ: «إِنَّهُ «سيلدن» – السَّجينُ الهارِبُ مِنْ برنستون.»

وَبَدا أَنَّ ستيبلتون يَبْذُلُ جُهْدًا فائِقًا لِلتَّغَلُّبِ عَلى دَهْشَتِهِ وَخَيْبَةِ أَمَلِهِ. وَما لَبِثَ أَنْ قالَ: «ماذا حَدَثَ لَهُ؟»

«يَبْدو أَنَّهُ سَقَطَ عَلى هٰذِهِ الصُّخورِ فَكُسِرَ عُنُقُهُ... لَقَدْ سَمِعْنا صَرَخاتٍ غَريبَةً فَأَتَيْنا لِاسْتِبْيانِ الأَمْرِ.»

قالَ ستيبلتون: «لَقَدْ سَمِعْتُ هٰذِهِ الصَّرَخاتِ كَذٰلِكَ، فَقَدِمْتُ مِنْ مَنْزِلي... كُنْتُ قَلِقًا عَلى سير هَنْري.» فَسَأَلْتُهُ: «وَلِماذا سير هَنْري بِالذّاتِ؟»

«لِأَنّي دَعَوْتُهُ لِزِيارَتي هٰذا المَساءَ، فَلَمّا تَأَخَّرَ في الحُضورِ خَشيتُ أَنْ يَكونَ قَدْ أَصابَهُ مَكْروهٌ، وَأَسْرَعْتُ إِلى هُنا لَدى سَماعي تِلْكَ الصَّرَخاتِ... قُلْ لي، يا دكتور واطْسُن، هَلْ رَأَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ ذي بالٍ؟»

أَجَبْتُهُ في حَزْمٍ وَثَباتٍ: «كَلّا، وَأَنْتَ؟» فَأَجابَ بِالنَّفْيِ.

قُلْتُ في دَهْشَةٍ : «عَنْ أَيِّ شَيْءٍ تَسْتَفْسِرُ إِذَنْ؟»

أَجابَ الرَّجُلُ قائِلًا : «أَنْتَ تَعْرِفُ – وَلا شَكَّ – ما يَتَناقَلُهُ الفَلّاحونَ في هٰذِهِ المِنْطَقَةِ مِنْ حِكاياتٍ عَنِ «الكَلْبِ الشَّبَحِ» وَما إلى ذٰلِكَ. وَهٰذا يَجْعَلُني أَتَساءَلُ في حَيْرَةٍ : هَلْ فيما وَقَعَ اللَّيْلَةَ ثَمَّةَ دَليلٌ عَلى صِدْقِ هٰذِهِ الرِّواياتِ؟»

«كَلّا بِالمَرَّةِ، إِذْ لا يَعْدو الأَمْرُ أَنْ يَكونَ حادِثًا مَشْئومًا ؛ فَإِنَّ «سيلدن» التَّعيسَ قَدْ دَفَعَهُ طولُ القَلَقِ وَالتَّشَرُّدِ إِلى أَنْ يَعْدُوَ كَالمَجْنونِ، فَوَقَعَ وَكُسِرَ عُنُقُهُ!»

بَدَت عَلى ستيبلتون أَماراتُ الارْتِياحِ، فَعَقَّبَ قائِلًا : «يَبْدو هٰذا مَعْقولًا.»

ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلى صَديقي هولمز بِالسُّؤالِ : «وَما رَأْيُكَ أَنْتَ في هٰذِهِ الحادِثَةِ، يا سَيِّدُ شِرلوك هولمز؟»

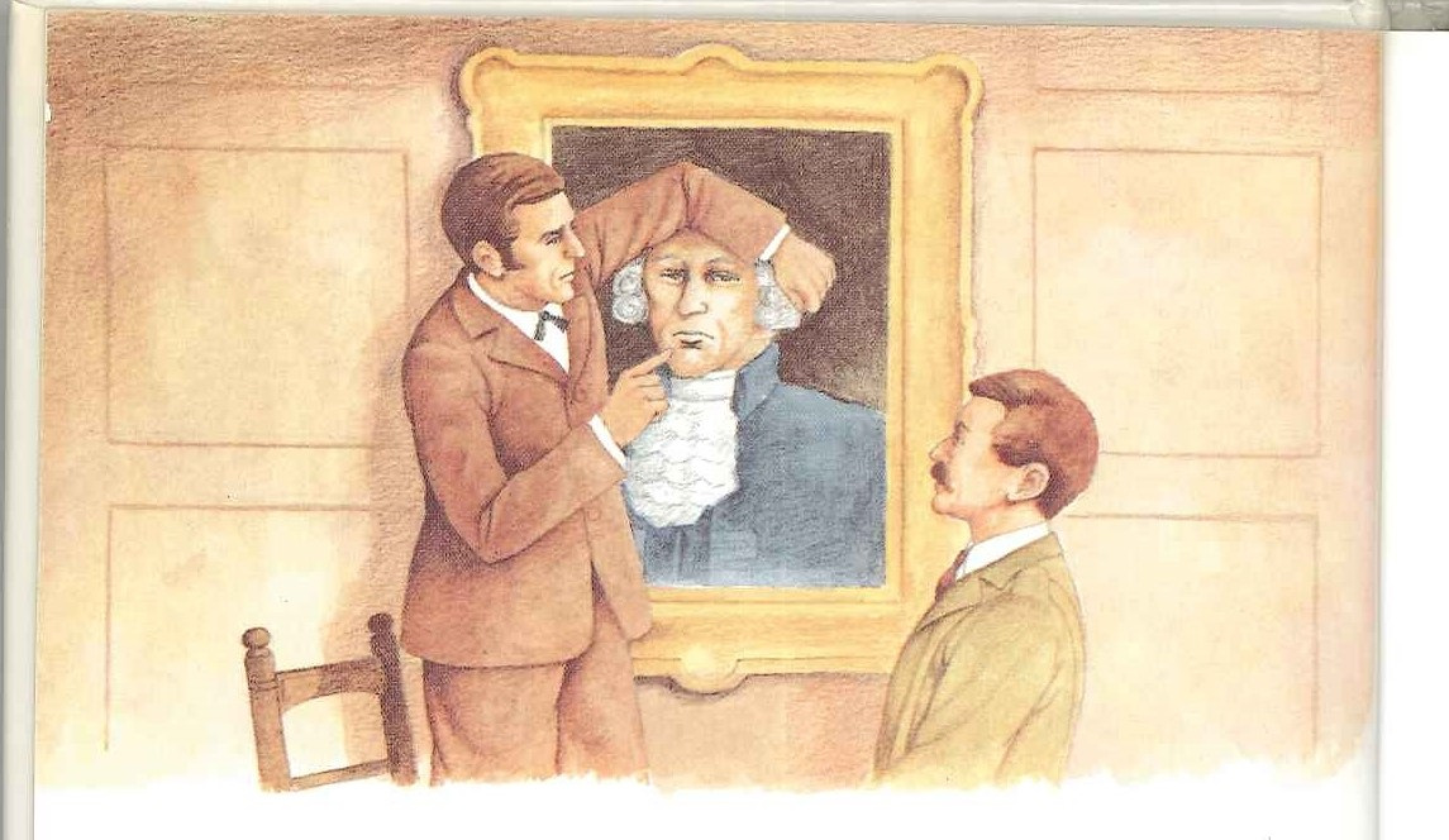
أَجابَ هولمز، وَهُوَ يَخْطو بِضْعَ خُطُواتٍ إِلى الأَمامِ : «لَقَدْ عَرَفْتَني!»

«طَبْعًا.. عِنْدَما رَأَيْتُ الدّكتور واطْسُن هُنا، أَدْرَكْتُ أَنَّكَ سَتَلْحَقُ بِهِ.»

وَتَرَكْنا الجُثَّةَ، وَوَدَّعْنا ستيبلتون، ثُمَّ قَفَلْنا راجِعينَ إِلى قَصْرِ باسْكرْڤيل.

قالَ السَّيِّدُ هولمز بِابْتِسامَةٍ كالِحَةٍ : «يا لَأَعْصابِ الرَّجُلِ القَوِيَّةِ! إِنَّهُ شَيْطانٌ ماكِرٌ، وَلٰكِنْ كِدْنا أَنْ نوقِعَهُ في الفَخِّ. نَحْنُ لا نَمْلِكُ دَليلًا في الوَقْتِ الحاضِرِ عَلى إِدانَتِهِ في مَصْرَعِ أَيِّ شَخْصٍ، فَإِنَّ الظّاهِرَ لِلْعِيانِ أَنَّ سير تشارلز قَدْ تُوُفِّيَ بِمَرَضٍ في القَلْبِ، وَأَنَّ السَّجينَ الهارِبَ «سيلدن» قَدْ لَقِيَ حَتْفَهُ إِثْرَ سَقْطَةٍ عَلى الأَحْجارِ. غَيْرَ أَنَّني أَتَوَقَّعُ أَنْ تُزَوِّدَنا السَّيِّدَةُ ليونز بِبَعْضِ الحَلَقاتِ المَفْقودَةِ.»

وَعِنْدَ وُصولِنا إِلى القَصْرِ، أَفْضَيْنا بِنَبَإِ مَصْرَعِ سيلدن إِلى السَّيِّدِ باريمور وَزَوْجَتِهِ. وَبَدا باريمور وَكَأَنَّهُ تَخَفَّفَ مِنْ شَيْءٍ كانَ يُثْقِلُ كاهِلَهُ. أَمّا زَوْجَتُهُ فَقَدْ حَزِنَتْ حُزْنًا شَديدًا ؛ إِذْ كانَتْ لا تَزالُ تَرى في شَخْصِ سيلدن أَخًا أَصْغَرَ عَزيزًا عَلَيْها. وَسُرَّ سير هَنْري لِرُؤْيَتِنا – وَلِلِقاءِ هولمز بِنَوْعٍ خاصٍّ – إِذْ كانَ قَلِقًا طَوالَ المَساءِ، يَمْشي في أَرْجاءِ المَنْزِلِ طِبْقًا لِتَعْليماتي المُشَدَّدَةِ بِعَدَمِ مُغادَرَةِ المَكانِ. وَأَخْبَرْناهُ بِمُعْظَمِ ما جَرى عَلى أَرْضِ المُسْتَنْقَعِ، وَكانَ تَوّاقًا إِلى مَعْرِفَةِ ما إِذا كُنّا قَدِ اكْتَشَفْنا شَيْئًا عَنِ الشَّبَحِ.



قالَ سير هَنْري في تَأْكيدٍ : «لَقَدْ سَمِعْتُهُ جَيِّدًا، وَكَذٰلِكَ الدّكتور واطْسُن، وَإِنّي موقِنٌ شَخْصِيًّا أَنَّهُ كَلْبٌ حَقيقِيٌّ، وَلَيْسَ وَهْمًا أَوْ خَيالًا.»

أَجابَ هولمز : «حَسَنًا، إِذا مَدَدْتَ لَنا يا سير هَنْري يَدَ العَوْنِ، فَلَسَوْفَ نَتَمَكَّنُ مِنْ كَشْفِ السِّرِّ بِأَكْمَلِهِ.» فَأَجابَ سير هَنْري بِحَماسٍ : «سَوْفَ أُنَفِّذُ بِسُرورٍ كُلَّ ما تَطْلُبانِ.»

وَتَوَقَّفَ هولمز فَجْأَةً، وَهُوَ يُحَمْلِقُ في صورَةٍ مُعَلَّقَةٍ عَلى الجِدارِ. كانَتْ صورَةً زَيْتِيَّةً لِهوغو دي باسكرڤيل : الرَّجُلِ الأَصْلِيِّ في الأُسْطورَةِ. وَبَعْدَ أَنْ غادَرَنا سير هَنْري إِلى غُرْفَتِهِ، وَقَفَ هولمز عَلى كُرْسِيٍّ وَأَخْفى بِذِراعِهِ القُبَّعَةَ وَالشَّعْرَ في الصّورَةِ. وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ سَأَلَني قائِلًا : «وَالآنَ يا واطْسُن، وَجْهُ مَنْ هٰذا؟»

كِدْتُ لا أُصَدِّقُ عَيْنَيَّ... وَصَرَخْتُ : «كَأَنَّهُ ستيبلتون.»

أَجابَ هولمز : «نَعَم... إِنَّ الرَّجُلَ مِنْ عائِلَةِ باسْكرْڤيل.»

صِحْتُ قائِلًا : «آهٍ، لَقَدْ قَبَضْتُ الآنَ عَلى مِفْتاحِ اللُّغْزِ... إِنَّ صَديقَنا ستيبلتون يَرْسُمُ خُطَّةً جَهَنَّمِيَّةً لِلاسْتِحْواذِ عَلى ضَيْعَةِ باسْكرْڤيل.» قالَ هولمز وَهُوَ يَفْرُكُ يَدَيْهِ فَرَحًا : «تَمامًا، يا واطْسُن، وَلٰكِنَّنا الآنَ ضَيَّقْنا حَوْلَ رَقَبَتِهِ الخِناقَ.»

وَفي الصَّباحِ التّالي ، أَخْطَرَ هولْمز سير هَنْري بِما سَوْفَ نَفْعَلُهُ قائِلًا لَهُ : «سَوْفَ نَرْحَلُ اليَوْمَ ، أَنا وَواطْسُن ، إلى لندن لِأَمْرٍ مُهِمٍّ . وَلٰكِنّي أُريدُكَ أَنْ تَذْهَبَ لِتَناوُلِ العَشاءِ مَعَ ستيبلتون وَأُخْتِهِ حَسْبَ المَوْعِدِ السّابِقِ . وَعِنْدَما تَصِلُ إلى «بيت ميريبت» مُرْ سائِقَكَ أَنْ يَعودَ بِالعَرَبَةِ إلى القَصْرِ ، قائِلًا لِستيبلتون إِنَّكَ سَوْفَ تَرْجِعُ سَيْرًا عَلى قَدَمَيْكَ .»

قاطَعَهُ سير هَنْري في ٱنْزِعاجٍ : «وَهَلْ سَأَعودُ إلى القَصْرِ لَيْلًا سائِرًا عَبْرَ المُسْتَنْقَعِ ؟»

«أَجَلْ . وَلٰكِنْ يَجِبُ أَنْ تَسيرَ عَلى المَمَرِّ المُسْتَقيمِ ما بَيْنَ بيتِ ميريبت وَطَريقِ جرمْبن ، وَلا تَنْسَ أَنْ تَذْكُرَ لِستيبلتون أَنَّني قَدْ ذَهَبْتُ اليَوْمَ إلى لندن في صُحْبَةِ واطْسُن .»

«سَمْعًا وَطاعَةً . سَوْفَ أَفْعَلُ ما تَأْمُرُ بِهِ .»

وَلَمْ نَلْبَثْ أَنِ ٱنْطَلَقْنا ، أَنا وَهولْمز إلى «كومب تريسي» حَيْثُ وَجَدْنا الفَتى كارترايت في ٱنْتِظارِنا . وَسَلَّمَ الفَتى لِهولْمز بَرْقِيَّةً تُفيدُ بِأَنَّ مُفَتِّشَ الشُّرْطَةِ المَدْعُوَّ ليستريد ، سَوْفَ يَكونُ هُناكَ في السّاعَةِ الخامِسَةِ وَأَرْبَعينَ دَقيقَةً . ثُمَّ سافَرَ كارترايت إلى لندن بِأَوَّلِ قِطارٍ لِيَبْعَثَ مِنْها بَرْقِيَّةً إلى سير هَنْري ، تُخْبِرُهُ بِوُصولِنا أَنا وهولْمز إلى العاصِمَةِ سالِمَيْنِ .

وَأَسْرَعْنا ، أَنا وهولْمز ، لِمُقابَلَةِ السَّيِّدَةِ ليونز . أَخْبَرَها هولْمز أَنَّهُ يَتَحَرّى عَنْ حادِثِ مَصْرَعِ سير تشارلز باسْكَرْڤيل ، وَأَنَّ التَّحْقيقَ قَدْ يَتَناوَلُها ، وَيَتَناوَلُ زَوْجَةَ ستيبلتون .

صاحَتِ السَّيِّدَةُ ليونز في دَهْشَةٍ : «ماذا ، يا سَيِّدُ هولْمز؟»

أَجابَ هولْمز في هُدوءٍ : «إِنَّها تَتَظاهَرُ بِأَنَّها أُخْتُهُ ، غَيْرَ أَنَّها زَوْجَتُهُ في الواقِعِ .»

صَرَخَتِ السَّيِّدَةُ في ٱنْفِعالٍ شَديدٍ : «لا أُصَدِّقُ هٰذا الهُراءَ ... كَلّا ، لا أُصَدِّقُهُ .. هَلّا أَقَمْتَ الدَّليلَ عَلى ما تَزْعُمُ؟» قالَ هولْمز بِنَفْسِ الهُدوءِ : «هاكِ صورَةً فوتوغرافِيَّةً أُخِذَتْ لِلزَّوْجَيْنِ في يورك مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَواتٍ ... كانا مَعْروفَيْنِ هُناكَ بِٱسْمِ : السَّيِّدِ ڤانديلير وَزَوْجَتِهِ ، وَلَدَيْنا شُهودٌ كَثيرونَ يَسْتَطيعونَ التَّعَرُّفَ عَلَيْهِما .»

وَتَفَحَّصَتِ السَّيِّدَةُ ليونز الصّورَةَ في شَكٍّ وَٱرْتِيابٍ . وَلٰكِنَّها لَمْ تَلْبَثْ أَنْ صاحَتْ في نَبْرَةٍ تَنْضَحُ بِالمَرارَةِ : «لَقَدْ عَرَضَ ذٰلِكَ الكاذِبُ المُخاتِلُ الزَّواجَ عَلَيَّ ... وَلٰكِنَّني أَدْرَكْتُ الآنَ مَدى كَذِبِهِ وَخِداعِهِ ، وَكَيْفَ كُنْتُ أَداةً طَيِّعَةً في يَدَيْهِ !»



وَٱسْتَمَرَّتْ قائِلَةً : «لَقَدْ طَلَبَ مِنّي أَنْ أَكْتُبَ خِطابًا لِسير تشارلز ، وَأَنْ أُحَدِّدَ فيهِ مَوْعِدًا لِلِقائِهِ كَيْ يُعْطِيَني مَبْلَغًا مِنَ المالِ لِسَدادِ رُسومِ إجْراءاتِ طَلاقي ، فَفَعَلْتُ ذٰلِكَ دونَ أَنْ يَخْطُرَ بِبالي أَنَّني أُعَرِّضُ حَياةَ الرَّجُلِ لِلْخَطَرِ ... وَقَدْ أَمْلى ستيبلتون عَلَيَّ الخِطابَ بِنَفْسِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ عادَ يَرْجوني – بَعْدَ إرْسالِهِ – أَلّا أَذْهَبَ لِلِقاءِ الرَّجُلِ ، زاعِمًا أَنَّهُ قَدْ شَعَرَ بِأَنَّ مِنْ واجِبِهِ إزائي أَنْ يُقَدِّمَ لي هُوَ المَبْلَغَ المَطْلوبَ ، وَتَوَسَّلَ إِلَيَّ أَلّا أَذْكُرَ لِأَحَدٍ شَيْئًا عَنْ هٰذا المَوْعِدِ الَّذي لَمْ يَتِمَّ مَعَ سير تشارلز .»

وَعَقَّبَ هولْمز : «لا بُدَّ أَنَّ الشُّكوكَ قَدْ ساوَرَتْكِ عِنْدَما أُبْلِغْتِ بِوَفاةِ سير تشارلز .»

«أَجَلْ ، وَلٰكِنْ لَوْ كانَ ستيبلتون أَمينًا مَعي ، لَما أَفْضَيْتُ لَكَ بِشَيْءٍ .»

أَرْدَفَ هولْمز : «يا سَيِّدَةُ ليونز ، أَسْتَطيعُ أَنْ أُؤَكِّدَ لَكِ الآنَ – بَعْدَ أَنْ عَرَفْتِ مَدى قَسْوَةِ ستيبلتون – أَنَّكِ سَعيدَةُ الحَظِّ جِدًّا بِبَقائِكِ عَلى قَيْدِ الحَياةِ حَتّى اليَوْمِ .»

وَغادَرْنا بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ مَغاليقُ السِّرِّ تَتَكَشَّفُ لَنا بِالتَّدْريجِ ، وَذَهَبْنا إلى المَحَطَّةِ لِمُقابَلَةِ «ليستريد» . وَفي طَريقِ عَوْدَتِنا بِالعَرَبَةِ سَرَدْنا عَلى الرَّجُلِ كُلَّ أَحْداثِ القِصَّةِ . وَقُبَيْلَ الوُصولِ إلى قَصْرِ باسْكَرْڤيل تَرَكْنا العَرَبَةَ وَسِرْنا عَلى الأَقْدامِ نَحْوَ بيتِ ميريبت ، بَيْنَما كانَتْ ظِلالُ المَساءِ القاتِمَةُ آخِذَةً في الٱنْتِشارِ مِنْ حَوْلِنا .

كانَ المُسْتَنْقَعُ ذا مَنْظَرٍ مُرَوِّعٍ كَئيبٍ ، وَغَطّى الضَّبابُ الكَثيفُ حَمْأَةَ جرمْبن . وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ رَأَيْنا أَضْواءَ بيت ميريبيت أَمامَنا . وَعِنْدَ ٱقْتِرابِنا مِنَ البَيْتِ ، ٱخْتَبَأَ هولمز وَليستريد خَلْفَ الصُّخورِ ، بَيْنَما زَحَفْتُ مُتَقَدِّمًا إلى أَقْرَبِ نافِذَةٍ . وَٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى سير هَنْري وَستيبلتون وَهُما يَحْتَسِيانِ القَهْوَةَ وَيُدَخِّنانِ السّيجارَ في غُرْفَةِ الطَّعامِ . وَواصَلْتُ المُراقَبَةَ ، فَرَأَيْتُ ستيبلتون يُغادِرُ الحُجْرَةَ ، وَيَنْزِلُ إلى الحَديقَةِ حَيْثُ سارَ فيها إلى أَنْ أَتى إلى مَبْنًى إضافِيٍّ صَغيرٍ مُلْحَقٍ بِالمَنْزِلِ . وَما إنْ فُتِحَ حَتّى تَرامَتْ إلى مَسْمَعي أَصْواتٌ غَيْرُ واضِحَةٍ مِنَ الدّاخِلِ . عَلى أَنَّهُ عادَ بَعْدَ بُرْهَةٍ قَصيرَةٍ إلى ضَيْفِهِ في حُجْرَةِ الطَّعامِ .

وَرَجَعْتُ لِأُخْبِرَ رَفيقَيَّ بِما رَأَيْتُ ، وَبِأَنَّني لَمْ أَعْثُرْ لِلسَّيِّدَةِ عَلى أَثَرٍ .

وَتَضايَقَ هولمز بَعْضَ الشَّيْءِ لِأَنَّ الضَّبابَ ٱضْطَرَّنا إلى تَغْييرِ مَسارِنا فَتَحَوَّلْنا عَنْ مُسْتَنْقَعِ جرمْبن إلى أَرْضٍ أَكْثَرَ صَلابَةً وَٱرْتِفاعًا تَبْعُدُ حَوالى نِصْفِ ميلٍ عَنِ المَنْزِلِ .

وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ سَمِعْنا فَجْأَةً وَقْعَ خُطُواتٍ سَريعَةٍ عَلى الطَّريقِ المَفْروشِ بِالحَصى . كانَ ستيبلتون يَسيرُ عَلى ذٰلِكَ الطَّريقِ ، وَيَتْبَعُهُ ضَيْفُهُ السِّير هَنْري عَلى بُعْدِ خُطُواتٍ قَليلَةٍ مِنْهُ ... وَفي مِثْلِ لَمْحِ البَصَرِ ، أَخْرَجَ هولْمز مُسَدَّسَهُ وَهُوَ يَهْمِسُ لي قائِلًا : «ٱنْتَبِهْ ! إنَّهُ قادِمٌ !»

وَسَرْعانَ ما تَصاعَدَتْ دَمْدَمَةٌ حادَّةٌ مُتَواصِلَةٌ مِنْ جَوْفِ الضَّبابِ المُتَراكِمِ . وَأَطْلَقَ ليستريد – عَلى حينِ غِرَّةٍ – صَرْخَةَ ذُعْرٍ هائِلَةً ، ثُمَّ ٱرْتَمى مُنْبَطِحًا عَلى الأَرْضِ . وَقَفَزْتُ – شاهِرًا مُسَدَّسي – إلى الأَمامِ ، فَرَأَيْتُ مَخْلوقًا فَظيعَ المَنْظَرِ يَبْرُزُ مِنْ بَيْنِ طَيّاتِ الضَّبابِ المُتَكاثِفِ مُثيرًا لِلْفَزَعِ وَالٱرْتِياعِ ... كانَ كَلْبًا ضَخْمَ الجُثَّةِ ، شَديدَ السَّوادِ ، ذا لَهَبٍ أَحْمَرَ يَتَفَجَّرُ مِنْ فيهِ ، وَعَيْناهُ تُشِعّانِ شُواظًا مِنْ نارٍ ، كَما كانَ يَتَمَيَّزُ بِفَكَّيْنِ ناتِئَيْنِ ، وَلُغْدٍ كَبيرٍ يَتَدَلّى أَسْفَلَ رَقَبَتِهِ ... وَوَثَبَ الكَلْبُ خَلْفَ سير هَنْري ، فَشَلَّتْ حَرَكَتَنا مِنَ الرُّعْبِ ، وَتَرَكْناهُ يَمُرُّ مِنْ أَمامِنا ، وَلٰكِنْ سَرْعانَ ما أَطْلَقْنا عَلَيْهِ الرَّصاصَ ، أَنا وَهولْمز ، في وَقْتٍ واحِدٍ . وَنَبَحَ الكَلْبُ نُباحًا عالِيًا مُخيفًا ، غَيْرَ أَنَّهُ واصَلَ العَدْوَ خَلْفَ الرَّجُلِ .

وَعَلى مَسافَةٍ غَيْرِ بَعيدَةٍ ، ٱسْتَطَعْنا أَنْ نَرى سير هَنْري يَتَطَلَّعُ إلى الوَراءِ في هَلَعٍ شَديدٍ ، لِيَرى ذٰلِكَ الحَيَوانَ المُفْزِعَ الَّذي يَتَعَقَّبُهُ . وَما إنِ ٱقْتَرَبْنا مِنَ الرَّجُلِ ، حَتّى رَأَيْنا الوَحْشَ



يَقْفِزُ فَوْقَهُ وَيَطْرَحُهُ عَلى الأَرْضِ . نَدَّتْ عَنْ سير هَنْري صَرْخَةُ ذُعْرٍ تُقَطِّعُ نِياطَ القَلْبِ ، وَلٰكِنْ في اللَّحْظَةِ التّالِيَةِ كانَ هولْمز قَدْ وَصَلَ ، فَأَطْلَقَ خَمْسَ رَصاصاتٍ ٱسْتَقَرَّتْ في جَنْبِ الوَحْشِ . وَتَرَنَّحَ الكَلْبُ العِمْلاقُ ... وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَّ صَريعًا .

وَظَلَّ سير هَنْري مَغْشِيًّا عَلَيْهِ بَعْضَ الوَقْتِ ، وَلٰكِنْ لَمْ نَجِدْ في جَسَدِهِ أَيَّةَ جُروحٍ . وَلَمْ نَلْبَثْ أَنْ أَعَدْناهُ إلى الوَعْيِ . فَهَمَسَ مُرْتَعِدًا : «ما هٰذا الشَّيْءُ المُرَوِّعُ ؟»

أَجابَ هولْمز : «هُوَ الشَّبَحُ الَّذي يُهَدِّدُ عائِلَتَكُم مُنْذُ زَمَنٍ ... وَلٰكِنَّهُ قَدْ ماتَ الآنَ .»

كانَ الحَيَوانُ المُفْزِعُ مُلْقًى بِجِوارِنا عَلى الأَرْضِ . وَتَفَحَّصْتُهُ فَأَلْفَيْتُهُ شَيْئًا وَسَطًا بَيْنَ كِلابِ الحِراسَةِ وَالكِلابِ البوليسِيَّةِ الضَّخْمَةِ ، وَلٰكِنَّهُ يَتَمَيَّزُ بِقُوَّةٍ عَظيمَةٍ . وَلَمَسْتُ الإشْعاعاتِ الزَّرْقاءَ الَّتي لَمْ تَزَلْ تومِضُ حَوْلَ فَكَّيْهِ ، فَفوجِئْتُ بِأَصابِعي تَبْرُقُ في الظَّلامِ



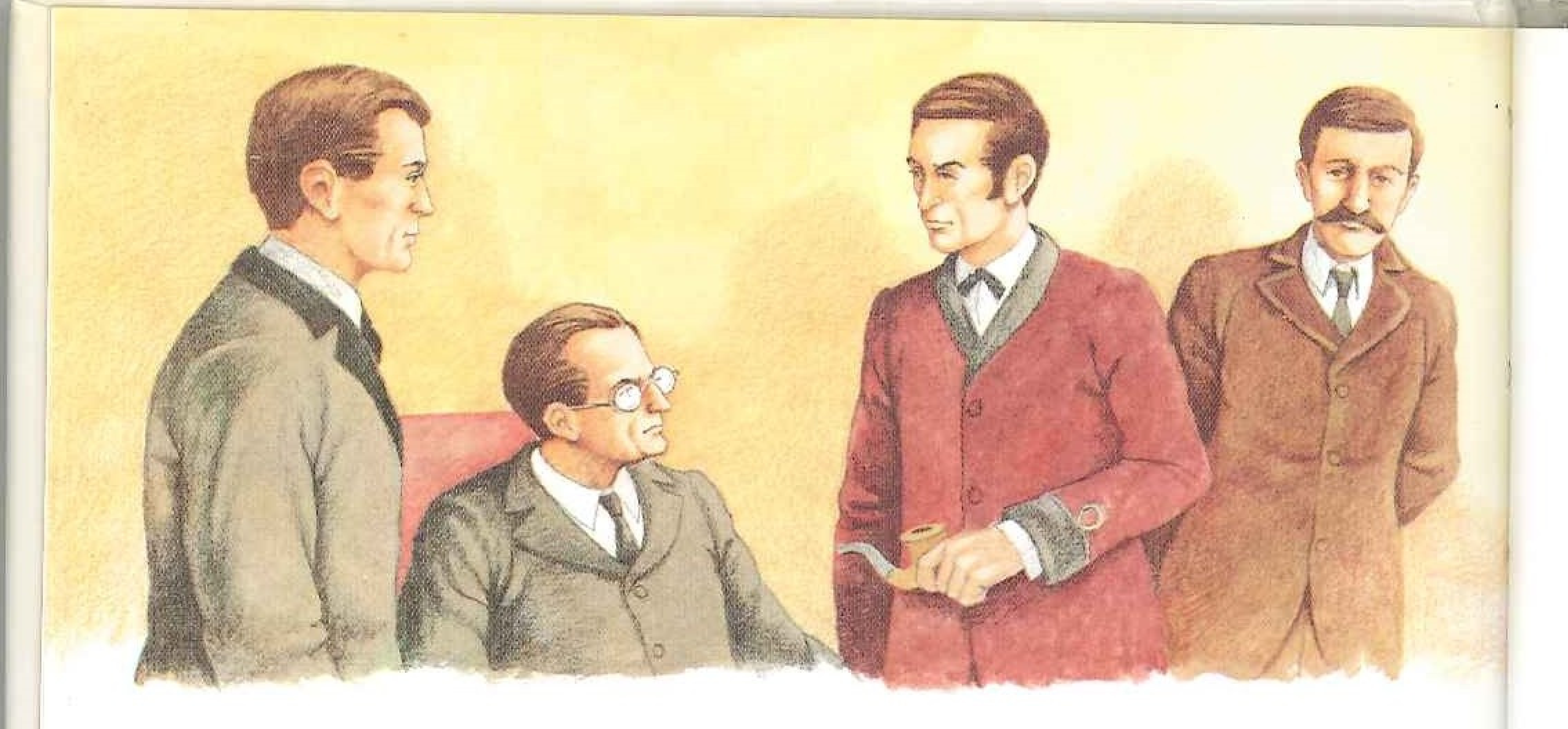
خاتمة

مَرَّتْ بِضْعَةُ أسابيعَ قَبْلَ أَنْ يُقَدِّمَ لَنا هولْمز تَفْسيرًا كامِلًا لِأَلْغازِ أُسْطورَةِ شَبَحِ باسْكَرْڤيل... كانَ ذٰلِكَ في لِقاءٍ ضَمَّنا مَعَ سير هَنْري باسْكَرْڤيل وَالدّكتور مورْتيمَر في لندن، قَبْلَ قِيامِهِما بِرِحْلَةٍ طَويلَةٍ حَوْلَ العالَمِ. قالَ هولْمز:

«عِنْدَما طَلَبَ مِنّي مورْتيمَر أَنْ أَتَحَرّى الظُّروفَ الغامِضَةَ الَّتي أَحاطَتْ بِمَصْرَعِ سير تشارلز باسْكَرْڤيل، كانَ هَمّي الأَوَّلُ أَنْ أَجْمَعَ كُلَّ المَعْلوماتِ المُمْكِنَةِ عَنْ عائِلَةِ باسْكَرْڤيل. وَكانَتِ المُفاجَأَةُ الأولى عِنْدَما اكْتَشَفْتُ أَنَّ «رودجر» – أَخاهُ الأَصْغَرَ ذا السُّمْعَةِ السَّيِّئَةِ الَّذي هَرَبَ إِلى جَنوبِ أَمْريكا – لَمْ يَمُتْ عَزَبًا – كَما يَظُنُّ النّاسُ – وَلٰكِنَّهُ تَزَوَّجَ وَأَنْجَبَ وَلَدًا. وَتَزَوَّجَ هٰذا الابْنُ بِفَتاةٍ جَميلَةٍ مِنْ «كوستاريكا»، ثُمَّ عادا – بَعْدَ حينٍ – مَعًا إِلى إِنْجِلْتِرا مُنْتَحِلَيْنِ اسْمَ: ڤانديلير أَوَّلًا، ثُمَّ ستيبلتون بَعْدَ ذٰلِكَ.

«وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَخْبَرَني واطْسُن في تَقْريرِهِ الأَوَّلِ الَّذي أَرْسَلَهُ لي أَنَّ ستيبلتون – وَهُوَ أَقْرَبُ جارٍ إِلى قَصْرِ باسكرڤيل – قَدْ ذَكَرَ أَمامَهُ أَنَّهُ كانَ يَمْتَلِكُ مَدْرَسَةً في يوركشاير قَبْلَ أَنْ يَحْضُرَ إِلى ديڤونشاير، ثُمَّ اضْطُرَّ إِلى إِغْلاقِها بَعْدَ مَوْتِ ثَلاثَةِ تَلاميذَ بِأَحَدِ الأَوْبِئَةِ. وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَحَرّى عَنْ تِلْكَ المَدْرَسَةِ، فَوَجَدْتُ أَنَّ صاحِبَها كانَ يَحْمِلُ اسْمَ: ڤانديلير، وَأَنَّهُ كانَ مُتَزَوِّجًا بِامْرَأَةٍ مَليحَةِ الجَمالِ، فارِعَةِ الطّولِ، ذاتِ لَوْنٍ خَمْرِيٍّ وَمَظْهَرٍ أَجْنَبِيٍّ بَعْضَ الشَّيْءِ. وَقَدْ تَمَكَّنْتُ مِنَ الحُصولِ عَلى أَوْصافٍ وَصُوَرٍ فوتوغرافِيَّةٍ لِلزَّوْجَيْنِ، كَما عَلِمْتُ أَيْضًا أَنَّ ستيبلتون كانَ حُجَّةً في عِلْمِ الفَراشاتِ. وَهٰذا قَرَنَهُ في ذِهْني لِلتَّوِّ بِجارِ باسْكَرْڤيل الَّذي يَقْطُنُ بَيْتَ ميريبيت.

«وَعِنْدَما قَرَأْتُ تَقْريرَ واطْسُن عَنْ أُسْطورَةِ شَبَحِ باسكرڤيل، طَرَدْتُ في الحالِ فِكْرَةَ أَنْ يَكونَ هُناكَ شَيْءٌ خارِقٌ لِلطَّبيعَةِ في الأَمْرِ، ذٰلِكَ لِأَنَّ الحَيَوانَ كانَ قَدْ تَرَكَ بَصَماتِ أَقْدامِهِ عَلى طَريقِ «يو»، حَيْثُ وُجِدَتْ جُثَّةُ سير تشارلز. وَلَقَدْ حَمَلَني ذٰلِكَ عَلى أَنْ



أُجْرِيَ اسْتِعْلاماتٍ بَيْنَ كِبارِ تُجّارِ الكِلابِ في لندن لِمَعْرِفَةِ ما إِذا كانَ أَحَدُ الأَشْخاصِ قَدِ اشْتَرى كَلْبًا ضَخْمًا في الأَيّامِ الأَخيرَةِ. وَسَرْعانَ ما اكْتَشَفْتُ أَنَّ شَرِكَةَ «روس ومانجلز» المَعْروفَةَ في شارِعِ فولهام قَدْ باعَتْ كَلْبًا وَحْشِيًّا ضَخْمًا إِلى رَجُلٍ يُدْعى ستيبلتون مِنْ ديڤونشاير.

«وَعِنْدَما اسْتَقَرَّ ستيبلتون في بَيْتِ ميريبيت جَعَلَ زَوْجَتَهُ تَتَظاهَرُ أَمامَ النّاسِ بِأَنَّها أُخْتُهُ، إِذْ كانَ قَدْ بَدَأَ يُفَكِّرُ حينَئِذٍ في تَدْبيرِ خُطَّةٍ شَيْطانِيَّةٍ يَرِثُ بِواسِطَتِها ضَيْعَةَ باسكرْڤيل بَعْدَ وَفاةِ ابْنِ عَمِّهِ سير تشارلز. وَكَرَّسَ هُوَ وَأُخْتُهُ «المَزْعومَةُ» جُهودَهُما لِلاطِّلاعِ عَلى أَحْوالِ سير تشارلز، وَلَمّا عَرَفَ مِنَ الدّكتور مورتيمر أَنَّ سير تشارلز مَريضٌ بِداءِ القَلْبِ، وَبِخَوْفٍ مَرَضِيٍّ جامِحٍ مِنَ الكَلْبِ الأُسْطورِيِّ المُفْتَرِسِ في ذاتِ الوَقْتِ، شَرَعَ في رَسْمِ خُطَّةٍ ماكِرَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِنْه، أَمَلًا في أَنْ يَرِثَ أَمْلاكَهُ بِحُكْمِ الحَقِّ الشَّرْعِيِّ.

«عَلى أَنَّ «أُخْتَ» ستيبلتون المَزْعومَةَ رَفَضَتْ أَنْ تُسْتَخْدَمَ كَشَرَكٍ لِإِغْواءِ سير تشارلز وَحَمْلِهِ عَلى الخُروجِ إِلى المُسْتَنْقَعِ، مِمّا اضْطَرَّ ستيبلتون لِلُّجوءِ إِلى السَّيِّدَةِ لورا ليونز لِلْقِيامِ بِهٰذِهِ المُهِمَّةِ، واعِدًا إِيّاها بِالزَّواجِ بِمُجَرَّدِ أَنْ يَتِمَّ طَلاقُها مِنْ زَوْجِها السّابِقِ. وَالَّذي حَدَثَ – كَما تَعْلَمونَ – هُوَ أَنَّ سير تشارلز اسْتُدْرِجَ إِلى البَوّابَةِ ذاتَ لَيْلَةٍ – عَنْ طَريقِ خِداعِ ستيبلتون للسيّدة لورا ليونز – حَيْثُ أُصيبَ بِذُعْرٍ شَديدٍ لِظُهورِ الكَلْبِ المُفاجِئِ، فَانْدَفَعَ جَرْيًا عَلى الطَّريقِ لِيَفِرَّ مِنَ الوَحْشِ المُرْعِبِ، مُخَلِّفًا وَراءَهُ بَصَماتِ

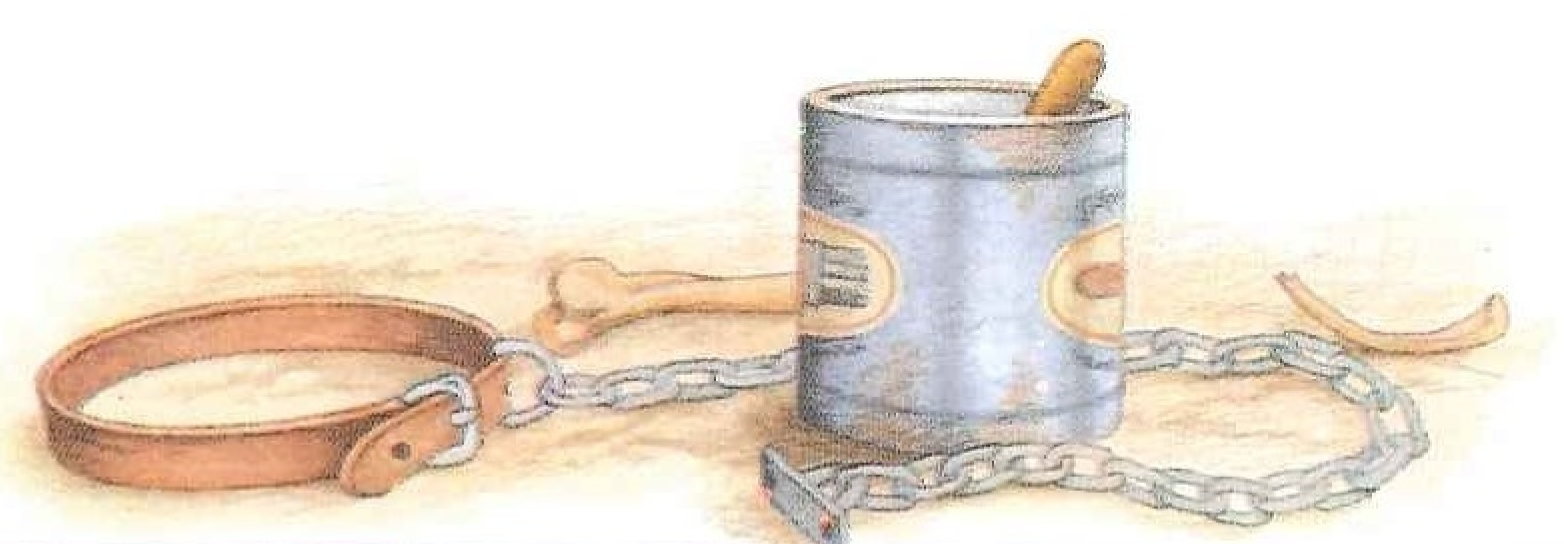
أَقْدامِهِ المُمَيَّزَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ ما لَبِثَ أَنِ انْهارَ ، وَماتَ بِسَكْتَةٍ قَلْبِيَّةٍ . وَالواقِعُ أَنَّ الكَلْبَ لَمْ يَنْهَشْ سير تشارلز ، كَما أَنَّهُ لَمْ يَنْهَشْ سيلدن ، لِأَنَّ الكِلابَ لا تَقْرَبُ لُحومَ المَوْتى .

«ظَنَّ ستيبلتون حينَئِذٍ أَنَّ الطَّريقَ قَدْ أَصْبَحَ مُمَهَّدًا لِأَنْ يُعْلِنَ عَنْ نَفْسِهِ مُطالِبًا بِضَيْعَةِ باسْكَرْفيل ، وَلٰكِنَّهُ فَزِعَ عِنْدَما وَجَدَ وَريثًا غَيْرَ مُتَوَقَّعٍ يُوشِكُ عَلى الظُّهورِ في شَخْصِ سير هَنْري باسْكَرْفيل . وَبِمُجَرَّدِ أَنْ وَصَلَ سير هَنْري إِلى لندن مِنْ كندا شَرَعَ ستيبلتون في صِراعِهِ سِرًّا ، غَيْرَ مُدْرِكٍ بِأَنَّ زَوْجَتَهُ الحَسْناءَ – الَّتي تَمْقُتُهُ لِقَسْوَتِهِ وَإِجْرامِهِ – سَوْفَ تُحاوِلُ تَحْذيرَ سير هَنْري مِنَ الخَطَرِ الَّذي يَتَرَبَّصُ بِهِ بِواسِطَةِ الرِّسالَةِ الغَريبَةِ الَّتي اقْتَطَعَتْ كَلِماتِها مِنْ إِحْدى الصُّحُفِ . وَيُفَسِّرُ وُجودُ ستيبلتون في لندن حينَئِذٍ واقِعَةَ الرَّجُلِ المُلْتَحي الَّذي كانَ يَسْتَقِلُّ العَرَبَةَ ؛ كَما يُفَسِّرُ أَيْضًا واقِعَةَ اخْتِفاءِ أَحْذِيَةِ سير هَنْري ؛ وَكانَ حِذاؤُهُ الجَديدُ قَدْ أُخِذَ خَطَأً ، أَمّا الحِذاءُ الأَسْوَدُ القَديمُ فَقَدْ سُرِقَ لِتَكونَ رائِحَتُهُ دَليلًا لِلْكَلْبِ الَّذي سَوْفَ يُطارِدُهُ بَعْدَ أَنْ يُسْتَدْرَجَ لِلْخُروجِ إِلى المُسْتَنْقَعِ .

«أَمّا حادِثَةُ السَّجينِ الهارِبِ : سيلدن ، فَهِيَ مِثالٌ صارِخٌ لِسُخْرِيَةِ الأَقْدارِ ، فَلَقَدْ تَخَفّى في مَلابِسِ سير هَنْري القَديمَةِ لِيَسْتَعينَ بِذٰلِكَ عَلى الفِرارِ ، فَكانَتْ رائِحَةُ هٰذِهِ المَلابِسِ سَبَبًا في مُطارَدَةِ الكَلْبِ العَنيفَةِ لَهُ ، وَتَهَشُّمِ رَأْسِهِ فَوْقَ الصُّخورِ .

«وَلَعَلَّكَ دَهِشْتَ يا صَديقي واطْسُن ، عِنْدَما لاحَظْتَ الشَّبَهَ بَيْنَ صورَةِ هوغو باسْكَرْفيل الشِّرّيرِ وَمَلامِحِ صاحِبِنا ستيبلتون – بَيْدَ أَنَّ هٰذا الشَّبَهَ الكَبيرَ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ كانَ قَدْ تَأَكَّدَ لي قَبْلَ ذٰلِكَ ، حينَ شاهَدْتُ صورَةً فوتوغرافِيَّةً في يوركشاير لِلْمَدْعُوِّ : السَّيِّدِ ڤانديلير .

«وَمِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّكَ قَدْ أَدْرَكْتَ الآنَ يا عَزيزي واطْسُن ، لِماذا جِئْتُ إِلى ديڤونشاير ، وَأَقَمْتُ عِدَّةَ أَيّامٍ عَلى أَرْضِ المُسْتَنْقَعِ دونَ أَنْ أُحيطَكَ عِلْمًا بِذٰلِكَ ... لَقَدْ كُنْتُ – بِهٰذِهِ الطَّريقَةِ – حُرًّا في مُلاحَظَةِ تَحَرُّكاتِ ستيبلتون وَكَلْبِهِ .





سير آرثر كونان دويل

وُلِدَ سير آرثر كونان دويل في إدنبره باسكتلندا عام ١٨٥٩ ، وَكانَ الابْنَ الأَكْبَرَ لِوالِدَيْنِ أيرلنديين ذَوَيْ دَخْلٍ مُتَواضِعٍ وَأَبْناءٍ كَثيرينَ . وَكانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّهِ أَنِ اسْتَطاعَ الحُصولَ عَلى قَدْرٍ جَيِّدٍ مِنَ التَّعْليمِ : فَقَدْ حازَ دَرَجَةً عِلْمِيَّةً في الطِّبِّ مِنْ جامِعَةِ إدنبره ، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ حَياتَهُ العَمَلِيَّةَ كَطَبيبٍ في مَدينَةِ «بلايموث» أَوَّلَ الأَمْرِ ، ثُمَّ في «ساوثسي» بِجَنوبِ إِنْجلترا . وَكانَتْ حَياةُ الطَّبيبِ حينَئِذٍ مُريحَةً ، بَيْدَ أَنها لَمْ تَكُنْ تَدُرُّ دَخْلًا كَبيرًا . وَلَمّا تَزَوَّجَ آرثر كونان دويل ، وبَدَأَ يَعولُ أُسْرَتَهُ الصَّغيرَةَ ، قَرَّرَ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلى الكِتابَةِ كَيْ يَزيدَ مِنْ إيرادِهِ .

أَثْمَرَ هٰذا التَّحَوُّلُ سِلْسِلَةً مِنَ القِصَصِ عَنْ مُخْبِرٍ سِرِّيٍّ يُدْعى «شرلوك هولمز» ، وَمُساعِدِهِ ، الدُّكتور واطْسن ، كَما ظَفِرَ الكاتِبُ عَنْ طَريقِ هٰذِهِ السِّلْسِلَةِ بِنَجاحٍ وَثَرْوَةٍ لا بَأْسَ بِهِما . وَلَقَدْ أَدْخَلَ كونان دويل شَخْصِيَّةَ شرلوك هولمز بادِئَ ذي بَدْءٍ في قِصَّةٍ طَويلَةٍ بِعُنْوانِ «دِراسَةٌ في اللَّوْنِ القِرْمِزِيِّ A Study in Scarlet» كُتِبَتْ عامَ ١٨٨٦ ، بَيْدَ أَنَّ القِصَّةَ لَمْ تُلاقِ نَجاحًا مَلْحوظًا – وَإِنْ أَصْبَحَتْ هِيَ البِدايَةَ الَّتي انْطَلَقَتْ مِنْها شَخْصِيَّةُ شرلوك هولمز وَتَطَوَّرَتْ . وَفي ذٰلِكَ الوَقْتِ ، كانَ كَثيرٌ مِنَ الأَدَبِ القَصَصِيِّ يُكْتَبُ لِلْمَجَلّاتِ الشَّهْرِيَّةِ ، حَيْثُ كانَتْ تَظْهَرُ القِصَصُ الطَّويلَةُ عَلى شَكْلِ حَلَقاتٍ تُنْشَرُ عَلى مَدى شُهورٍ عِدَّةٍ . وَقَدْ نُشِرَتْ مُعْظَمُ رِواياتِ تشارلز ديكنز بِهٰذِهِ الطَّريقَةِ في العُقودِ الأُولى مِنَ القَرْنِ

التّاسعَ عشَرَ. وَلَقَدْ طَرَقَ كونان دويل فِكْرَةً جَديدَةً: وَهِيَ أنْ يَحْتَوِيَ كُلُّ عَدَدٍ مِنْ أعْدادِ المَجَلَّةِ عَلى قِصَّةٍ كامِلَةٍ تامَّةٍ في حَدِّ ذاتِها، وَأنْ تَكونَ هَٰذِهِ الشَّخْصِيّاتُ مِحْوَرًا لِسِلْسِلَةٍ مِنْ هَٰذِهِ القِصَصِ المَنْشورَةِ عَبْرَ أعْدادٍ كَثيرَةٍ مِنَ المَجَلَّةِ.

وَسَرْعانَ ما اكْتَسَبَتِ الأعْمالُ البُطوليَّةُ الجَريئَةُ لِشرلوك هولْمز والدُّكتور واطْسُن الّتي احْتَوَتْها القِصَصُ المَنْشورَةُ في مَجَلَّةِ «الشّاطِئ» جُمْهورًا عَريضًا مُتَحَمِّسًا في شَتّى أرْجاءِ العالَمِ. وَلٰكِنْ ما إنْ حَلَّ عامُ ١٨٩١ حَتّى فَقَدَ كونان دويل اهْتِمامَهُ بِشَخْصِيَّةِ شرلوك هولْمز وَقَرَّرَ ألّا يَكْتُبَ عَنْهُ كَلِمَةً أخْرى واحِدَةً: لَقَدْ شَعَرَ أنَّهُ - في حَقيقَةِ الأمْرِ - كاتِبٌ جادٌّ، وَأنَّ شُهْرَتَهُ وَخُلودَهُ سَوْفَ يُؤَسَّسانِ عَلى دَعائِمِ الرِّوايَةِ التّاريخيَّةِ دونَ غَيْرِها مِثْلِ رِوايَتِهِ: «مايكا كلارك». بَيْدَ أنَّ هٰذا لَمْ يَتَحَقَّقْ: ذٰلِكَ أنَّ كونان دويل لا يَزالُ يُذْكَرُ حَتّى اليَوْمِ بِأنَّهُ مُبْدِعُ شَخْصِيَّةِ: شرلوك هولْمز.

عَلى أنَّ كونان دويل ما لَبِثَ أنِ اقْتَنَعَ عامَ ١٩٠١ بِأنَّهُ مِنَ الخَيْرِ أنْ يُعيدَ إحْياءَ شَخْصِيَّةِ شرلوك هولْمز، وَكانَتِ النَّتيجَةُ أنْ ظَفِرَ الأدَبُ بِرِوايَةِ: «شَبَح باسكرڤيل». وَأعْقَبَ هٰذِهِ الرِّوايَةَ العَديدُ مِنْ قِصَصِ هولْمز، حَتّى إنَّ مَجَلَّةَ «الشّاطِئ» لَمْ تَفْرَغْ مِنْ نَشْرِ قِصَّتِهِ الأخيرَةِ - وَتَرْتيبُها السِّتّونَ في هٰذِهِ القِصَصِ - إلّا في عام ١٩٢٧. وَفي نَفْسِ الوَقْتِ كَتَبَ كونان دويل أعْمالًا أخْرى كَثيرَةً، مِنْ أشْهَرِها رِوايَتُهُ الواسِعَةُ الانْتِشارِ: «العالَمُ المَفْقود».

وَلَقَدْ عاشَ كونان دويل حَياةً بالِغَةَ النَّشاطِ كَرَجُلٍ مِنْ رِجالاتِ الرِّياضَةِ، وَمُحاضِرٍ، وَرَحّالَةٍ، وَمُرَشَّحٍ لِعُضْويَّةِ البَرْلَمانِ. وَقُرْبَ نِهايَةِ حَياتِهِ شُغِفَ كَثيرًا بِالرّوحانِيّاتِ، واسْتَغْرَقَ فيها إلى أنْ تُوُفِّيَ عامَ ١٩٣٠.

